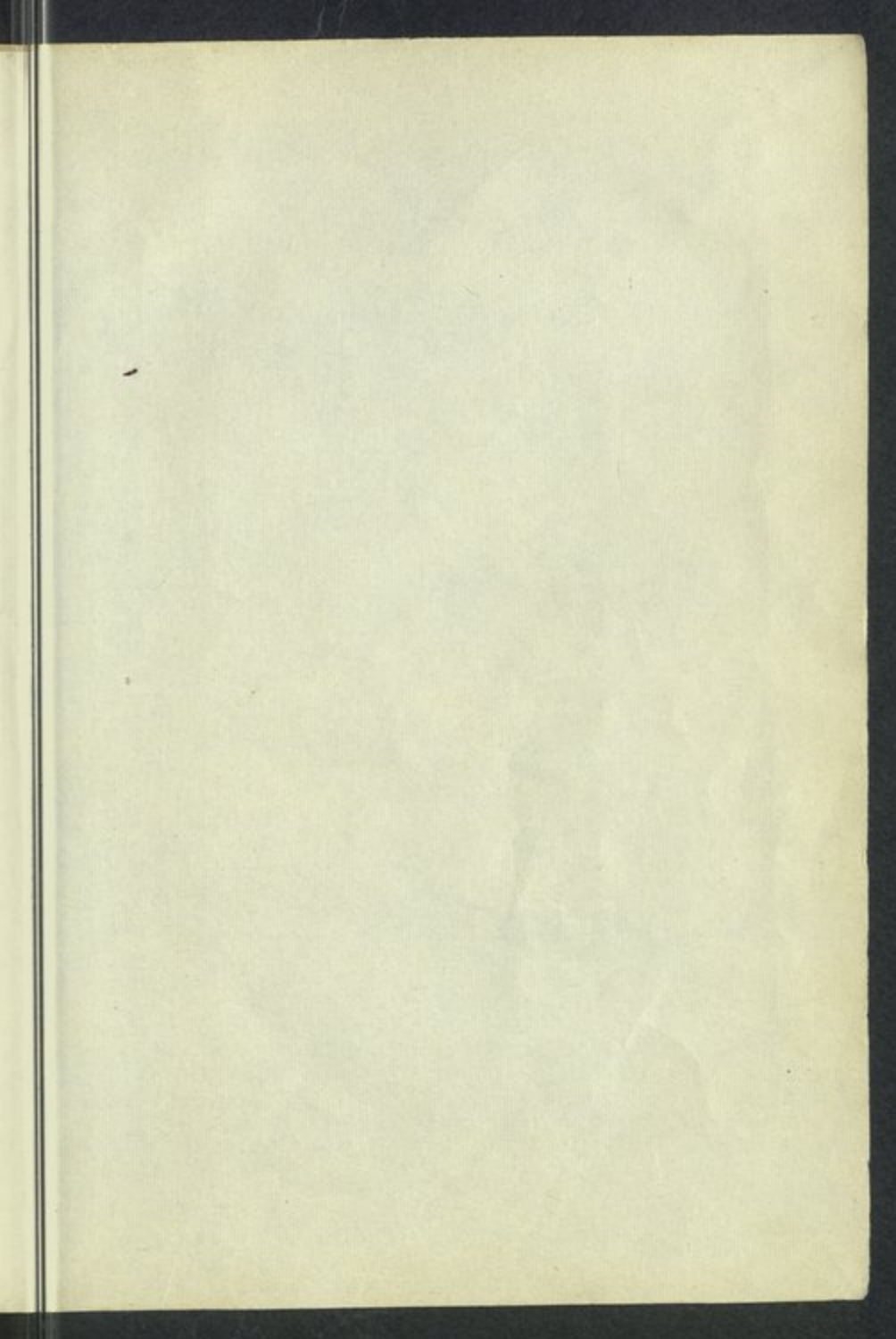


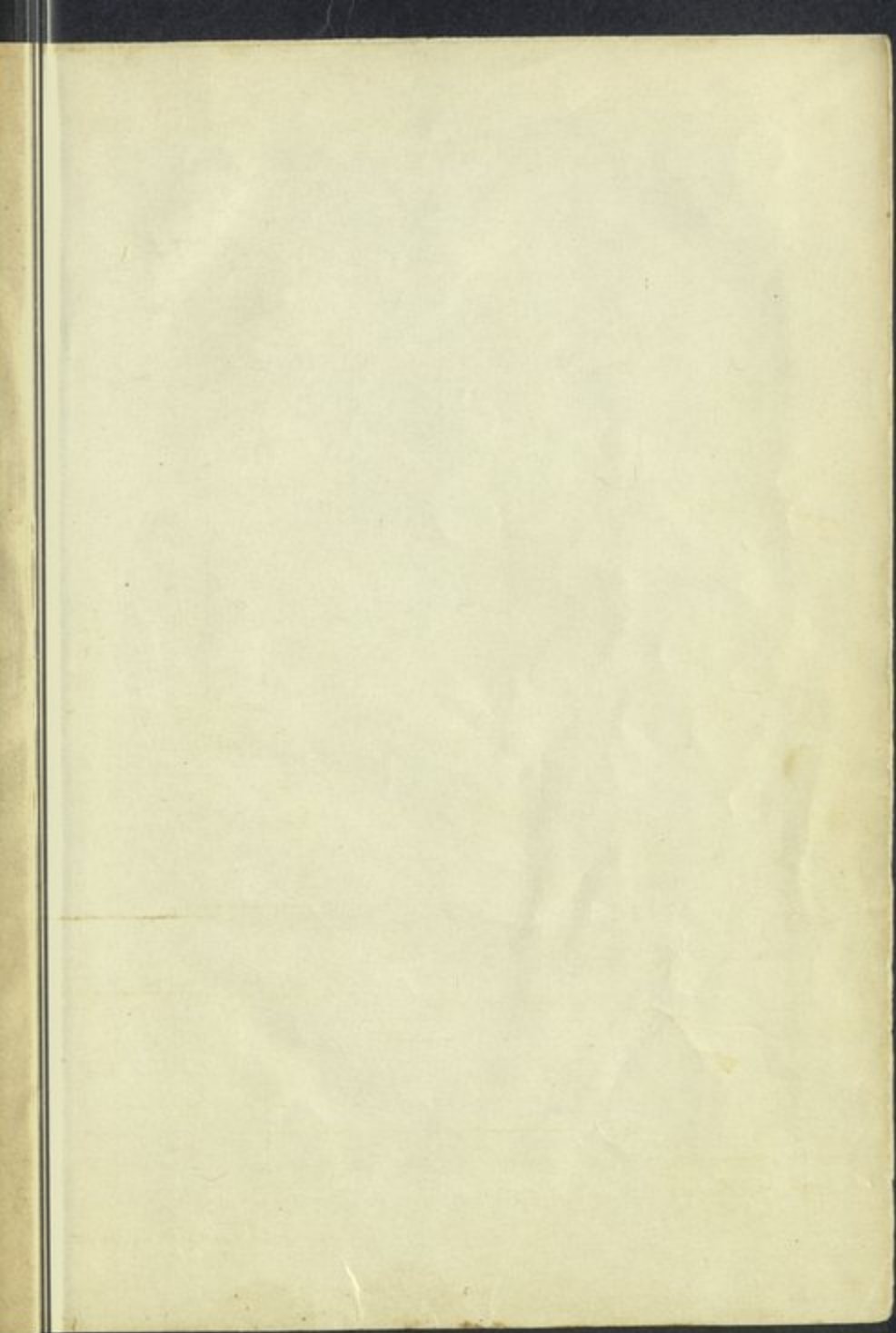
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



5



مجلس الكليات





ظه حسين

892.78

No. 3924A

c. 1

دعاء الكروان



دارالمخارف بمصر



إلى صديقي الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

سيدي الأستاذ

أنت أقمت للكروان ديواناً فخماً في الشعر العربي
الحديث ، فهل تأذن في أن أتخذ له عشاً متواضعاً في
النثر العربي الحديث ، وأن أهدي إليك هذه القصة
تحية خالصة من صديق مخلص .

طه حسين



اتيح هذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا
العظيم خليل مطران موضع الرضا ، فأهدى
إلى هذه القصيدة الرائعة فضلاً منه أتقبله
فخوراً شكوراً . وأكره أن أوثر به
نفسى من دون الذين يحبون الشعر الرفيع
بل أكره أن يحملنى التواضع الكاذب على
إخفاء هذه المكرمة التى إن صورت شيئاً
فإنما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً :

دُعَاءُ هَذَا الْكَرْوَانِ الَّذِي

خَلَّدَتْهُ فِي مَسْمَعِ الذَّهْرِ

لَهُ صِدْقٌ فِي الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ مِنْ

أَشْيِ مَتَاعِ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ

لَكِنَّهُ مُشَجٌّ بِرَجِيْعِهِ

لَمَّا جَرَى فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ

إِذْ تَسْكُنُ الْبَيْدَاءَ وَهُنَا فَمَا

يَنْبِضُ إِلَّا مُهْجُ السَّفْرِ

والليلُ في التيه السحيق المدى
يُطبقُ جفنيه على وزرٍ

والطائرُ المرتاعُ في جَوْه
يُنذرُ بالمأساة في دُعرٍ

يُرنُ لِرَنانِ سهامٍ رَمَتْ
حيثُ رَمَتْ بالشعلِ الحمرِ

أسالَ أدمعى خَطبُ مَطلولة
مقتولة في زهرة العمرِ

جتي عليها واهمُ أَنَّهُ
يَنأرُ للعرض وللطهرِ

وخامرني حسرةٌ خامرتُ
شهودَ ذاك المصراعِ النكرِ

أليس للأرواح في بَثِّها
أواصرٌ من حيث لا تدرى

جوهرُها فردٌ وإحساسها
مُشتركٌ في النفعِ والضَّرِّ

حادثه في ريف مصرٍ جرتُ
ومثلها في الريفِ كم يجرى

قَصَّتْ عَلَيْنَا قَصَصًا شَائِقًا

فِي كَلِمٍ أَنْتَقَى مِنَ الْقَطْرِ

مَسْرُودَةً سَرْدًا عَلَى صَفْوِهِ

أَفْعَلَ فِي النَّفْسِ مِنَ الْخَمْرِ

يَا لُغَةَ الْعَرَبِ الَّتِي كَاشَفْتُ

طَهَّ بِمَا صَانَتْ مِنَ السَّرِّ

مِنْ أَيْ رَوْضٍ يُجْتَنَى مِثْلُ مَا

جَنَاهُ مِنْ أَزْهَارِكَ النَّضْرِ

مِنْ أَيْ بَحْرِ الْمُنَى دُرَّةً

يُصَادُ مَا صَادَ مِنَ الدَّرِّ

مِنْ أَيْ تَبْرِ فِي غَوَالِي الْجَلِيِّ

يُصَاغُ مَا صَاغَ مِنَ التَّبْرِ

آيَاتُ طَهَّ تَزَكَّتْ بِالْهَدَى

فِيمَ اسْتَعَارَتْ فِتْنَةَ السَّحْرِ

أَحْدَثُ مَا جَاءَتْ بِهِ طُرُقَةٌ

بِدَيْعَةٍ فِي أَدَبِ الْعَصْرِ

جَلَّتْ خِيَالَ الشُّعْرِ فِي صُورَةٍ

أَغَارَتْ الشُّعْرَ مِنَ النَّثْرِ

ب
ش
ح
ج
ال
ب
ق
و
و
أ
ا
ق
م
س
ل
أ

لم يكن يقدر أني سألقاه قائمة باسمه حين أقبل إلى في ظلمة الليل
يسمى كأنه الحية أو كأنه اللص ، ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين
شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح
حتى أخذه شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض
جعل يأخذ صوته الطبيعي قليلاً قليلاً : ماذا ! ألا تزالين ساهرة إلى
الآن ؟ أتعلمين متى أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثه وما كان
ينبغي لي أن أنام قبل أن ينام سيدي ، فما يدري لعله يحتاج إلى شيء .
قال وقد عاد إلى ثباته وهدوء نفسه واسرود صوته شيئاً من قبحته المألوفة
ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها
وتسهر منتظرة مقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت
أرى من سبقك في خدمتي ، وكنت أقدر أني سأجد في إيقاظك بعض
الجهد ، فلست أدري ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات .
قلت : قد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت
منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل في دورهم ، فليأمر
سيدي بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلى يدياً وددت
لو استطعت قطعها ، ولكني تراجعت حتى لا تبلغني : فإن سيدك يأمرك
أن تتبعيه .

ثم انحلر إلى غرفته ومضيت في ثره .

• • •

لييك لبيك أيها الطائر العزيز ! ما زلت ساهرة أقرب مقدمك وأنتظر
نداءك ، وما كان ينبغي لي أن أنام حتى أحس قربك ، وأسمع صوتك ،
وأستجيب لدعائك . ألم أتعود هذا منذ أكثر من عشرين عاماً !

لييك لبيك أيها الطائر العزيز ! ما أحب صوتك إلى نفسي إذا جثم
الليل ، وهذا الكون ، ونامت الحياة ، وانطلقت الأرواح في هذا السكون
المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامته لا تسمع !

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح
ليذكرني روح هذه الأخت التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة
الرهيبة ، وفي ذلك الفضاء العريض الذي لم يكن من سبيل إلى أن يسمع
الصوت فيه مهما يرتفع ، ولا أن يجيب المغيث فيه لمن استغاث .

لييك لبيك أيها الطائر العزيز ! ادن مني إن كان من أخلاقك الدنو ،
وأنس إلى إن كان من خصالك الأنس إلى الناس ، واسمع مني وتحدث
إلي ، وهلم نذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً ، وعجزنا عن أن ندفعها
أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التي أزهدت ، وعن هذا الدم
البريء الذي سفك .

فلم نزد حينئذ على أن بعثنا صيحات ترددت في ذلك الفضاء العريض
لكنها لم تبلغ أذناً ولم تصل إلى قلب ، وإنما صعدت إلى السماء على حين
هوى ذلك الجسم الجميل الممزق في تلك الحفرة التي أعدت له إعداداً ،
ثم هيل التراب وسويت الأرض ، وأنت تدعو ولا من يستجيب ، وأنا
أستغيث ولا من يغيث ، وامرأة متقدمة في السن قد انتحت ناحية وجلست
تذرف دموعها في صمت عميق ، ورجل متقدم في السن قد قام غير

بعيد يسوى الأرض ، ويصبّ عليها الماء ، ويردها كما كانت ، ثم
 يتحى قليلا ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب ، ثم يرتفع صوته
 أمراً أن هلتمّ فقد آن لنا أن نرتحل .

منذ ذلك الوقت تمّ العهد بينك وبينى أيها الطائر العزيز على أن نذكر
 هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى نثار لهذه الفتاة التي غودرت في هذا
 الفضاء . ثم نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن نظفر بالثأر ،
 ليكون في ذكرنا إياها وفاءً لهذه النفس التي أزهدت ، ولهذا الدم الذي
 سفك ، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المجرم وردّ الأمر إلى نصابه ،
 وأراح هذه النفس التي ما زالت تطلب الري حتى تظفر بالثأر من الذين
 اعتدوا عليها .

لييك لبيك أيها الطائر العزيز ! إنا لتلتقى كلما انتصف الليل منذ
 أعوام وأعوام فندير بيننا هذا الحديث ، أفتدعني أقص أطرافاً منه على
 الناس لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تزهق ،
 والدماء البريئة من أن تراق ؟ !

لقد بعد صوت الكروان قليلا قليلا حتى انقطع ولم يبلغني منه شيء ،
 وعاد الليل إلى سكونه الهادئ الثقيل ، واطمأن من حولى كل شيء ،
 فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد ، وهذه
 الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا اللقب الجزين . . . وأنا آخذ

نفسى بالهدوء للألأم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا في مشقة وعناء . وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حولي في الغرفة فأرى ثراء ويسراً ، وأرى ترفاً وكلفاً بالجمال والفن ، وأنا أمدّ عيني إلى المرأة أمامي وأثبتها في أديمها الصافي الصقيل حيناً فتعود إلى بصورة إلا تكن رائعة بارعة ، فإنها لا تخلو من رواء ونضرة وحسن تنسيق . وما لي أسأل عن صورة هذه المرأة الجامدة الهامدة التي لا تحس شيئاً ولا تشعر بشيء ولا تعرب عن شيء وإني لأرى صورتي مرآت ومرآت في غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البلغة التي تحسن الإفصاح عما في النفوس وهي العيون ! لقد رأيت صورتي اليوم في غير عين من هذه العيون التي كانت ترمقني مسرعة ، ثم تعود إلى فتطيل النظر إلى قليلاً ، ثم تعود إلى مرة أخرى فثبتت في وجهي لا تكاد تنصرف عنه . وكنت كلما رأيت صورتي في هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآثمة لا أنكر ما أرى ، ولا أكره ما أجد من الشعور ، ولا أردّ نفسي عن هذا الغرور الذي يثيره في المرأة إعجاب الناس بها وبهالكهم عليها .

ثم أنا أنهض من مجلسي ، وأمشي في غرفتي لحظة غير قصيرة ، أذهب فيها وأجىء ، وأقف عند ما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف والنعمة ، فأطيل النظر إليه لا معجبةً به ولا مكبرةً له ، وإنما أسأل نفسي : أنا صاحبة هذا كله ؟ أنا المالكة لهذا كله ؟ أنا صاحبة هذه الصورة التي تردّها إلى المرأة والتي كانت ترمقها العيون معجبةً حين كنت أتناول الشاي في بعض مشاربه عصر اليوم ؟ !

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع ، وقد تقدم الليل حتى كاد

يبلغ ثلثيه ، أن أمدّ يدي إلى زرّ كهربيّ قريب ، فلا أكاد أمسه حتى يطرّق الباب ، ولا أكاد أرفع صوتي بالإذن حتى تدخل عليّ خادم وضيفة ، حسنة الشكل ، جميلة الزى ، ساهرة مهما يتقدّم الليل لأنى ما زلت ساهرة ، ولأنها لا تستطيع أن تأوى إلى مضجعها حتى آذن لها بالنوم . ثمّ أنا أمضى إلى هذه النافذة ، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ نفسي روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة ، وهذه الأزهار المتأرجحة ، وهذه الأطيّار التي تحلم في ثنايا الغصون . وكل هذا لى ملك خالص لا يشاركنى فيه أحد ، ولا يزاخنى عليه أحد ، أستطيع أن أعبت به إن شئت ، ومضى شئت ، وكيف شئت ، لا يسألنى أحد عما أفعل !

فإذا اجتمعت في نفسي صور هذا النعيم كله أحسست راحة وأمناً وثقة . ثمّ لا ألبث أن أحس شيئاً من الكبرياء الغريبة ؛ لأنى لا ألبث ان أرى صورتي منذ أكثر من عشرين عاماً حين كنت صبية بائسة يائسة ، قد شوّه البؤس والبأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كثيباً من الدمامة والقيح . لا ألبث أن أجد هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التي كنت أتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز ، والتي كان يتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز .

إنّ في أحداث الحياة وخطوبها لعظات وعبراً ! إنى لأتحدث الآن إلى نفسي حديثاً ما كان يمكن ولا ينتظر أن تتحدث به إلى نفسها تلك الفتاة التي كان الناس يسمونها آمنة ، والتي تسمى الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المألوف من حسن الاختيار والتظرف في الأسماء .

لقد كانت آمنة تلك فتاة بلوية ، انحدرت بها وبأختها امرأة من

أهل البادية ، أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه البادية ، لأنه منبت فى أطراف الأرض الحصبة مما يلي الصحراء الغربية أو مما يلي هذه الهضبات التى يسميها أهل مصر الوسطى بالجبل الغربى .

كانت زهرة أم آمنة وأختها هنادى امرأة بدوية ريفية ، تقيم فى قرية من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب التى لا يستقر أهلها فيها إلا ريثما يزبلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يُقبلون من الصحراء ليتعلموا الاستقرار فى الأرض والحياة فى أطراف الريف ، ثم يدفعهم فوج آخر فإذا هم بمضون أمامهم مضياً بطيئاً ، ينتقلون فى أناة ومهل من مكان إلى مكان ، وهم يتقدمون نحو الأرض المتحضرة دائماً حتى يبلغوا حدود البادية أو حدود هذا الريف المبتدئ ، وإذا هم على شاطئ القناة التى يسمونها البحر ويزعمون أن يوسف هو الذى احتفرها فى الزمن القديم . فإذا أتبع لهم أن يعبروا البحر ، فقليل منهم يحتفظ ببداوته ، وأكثرهم يفنى فى طبقات الزراع ويضيع فى عداد الفلاحين .

كانت زهرة أم هاتين الفتاتين تعيش مع زوجها الأعرابى وابنتها فى قرية من هذه القرى ، قد اتخذت اسمها فى أكبر الظن من بطن من بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم ؛ فقد كانت تسمى « بنى وركان » وكان أهل القرية ومن حولها يُميلون الألف قليلاً ويذهبون بها نحو الياء ، فما أسرع ما أصبح سبة وعاراً يعاب به أهل القرية ، وكيف لا وقد أصبح اسمها « بين الوركين » وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحيون من اسم قريتهم ويكرهون الانتساب إليها ، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن . فقد كان اسم قريتهم لا يذكر إلا

أضحك الناس وأجرى على ألسنتهم مزاحاً كثيراً ثقيلًا ، مُحْفَظًا لنفس
البدوى الذى لم يتعود دعابة القرويين وأهل الحضر .

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتها عيشة متواضعة هادئة ، فيها
رخاء معتدل ، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التى
كانت أمنا تنتسب إليها . ولكن أبانا لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة
حسنة إنما كان زير نساء يحب الدعابة والمجون ، ولا يتحرج مما يتحرج
منه الرجل المستقيم . وكانت له فى القرية وفى القرى المجاورة خطوط كانت
تخيف منه وتخيف عليه .

وكانت أمنا أشقى الناس بهذه الخطوب ، تتأذى بها فى ذات نفسها
— فكم حرقها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة
الكاملة — وتشفق منها على زوجها هذا الماجن ؛ فقد كانت تحبه على
مجونه وفجوره ، وكانت تعلم أنه يهين نفسه عداوات خطيرة فى كل مكان
بالحاحه فى المجون والفجور ، وتخاف منها على حياة ابنتها ومستقبلها
وأماهما فى العيش الهين .

وإنها لى بما هى فيه من غيرة وإشفاق وفزع ذات ليلة ، إذ جاءها
النبا بأن زوجها قد صرع . ثم يستين الأمر قليلا قليلا ، فإذا الرجل قد
ذهب ضحية لشهوة من شهوات الآثمة ، فليس له ثأر يطالب به ، وليس
من سبيل إلى استعداء السلطان على قاتليه ، وإنما هو العار كل العار قد
ألم بهذه المرأة البائسة وابنتها التعمستين ، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء
النساء ، تكره مكنهن منها ، وتنفيهن عن الأرض ، وترودهن بقليل من
المال وكثير من الرحمة ، وتكرههن على عبور البحر والاندفاع فى أرض

الريف يلتصق حياتهن فيها بإثسات شقيات ، ليس لمن سنك يعتمدن عليه ، ولا ركن بأوين إليه ؛ وإنما هي امرأة وحيدة لها حظ من جمال يُطمع فيها الناس ويغري بها أصحاب المحبون ، وصيبتان باستان لا تكادان تحسنان شيئاً .
والخطوب تنتقل بين من قرية إلى قرية ، ومن ضيعة إلى ضيعة ،

يلقبن بعض اللين هنا ، ويلقبن بعض الشدة هناك ، ولا تستقر بين الأرض في أي حال ، حتى ينهين إلى هذه المدينة الواسعة ذات الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتي تشقها الطريق الحديدية نصفين ، ويمضي فيها هذا الشيء المروع الخفيف الغريب الذي يبعث في الجو شرراً ونازاً ، وصوتاً ضخماً ، وصفيراً عالياً نحيفاً ، والذي يسمونه القطار ، الذي يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم ، كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً ، وبالحمير حيناً آخر ، وبالأقدام في أكثر الأحيان .

هنالك في طرف من أطراف هذه المدينة ، استقرت هذه المرأة مع الصيبتين . لجأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ العزبة فأواها يوماً ، ثم ابتغى لها ولابتنيها حجرة ضيقة صغيرة قد أقيمت من الطين ، فأسكنها فيها على أن تدفع أجرها عشرة قروش كلما بدا الهلال . ثم قال لها شيخ العزبة : ما أكثر العمل هنا ! فالتسى حياتك وحياة ابنتيك في بيوت هؤلاء المترفين الذين لا يعملون في الزرع والحراث ، وإنما يعملون في خدمة الحكومة ، منهم من يخدم في معامل السكر ، ومنهم من يخدم في المركز ، ومنهم من يخدم في المحكمة الأهلية أو الشرعية ، ومنهم مهندس الري ، ومنهم مهندس الطرق ؛ ثم عند هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فيما تُخرج الأرض من الحب ، فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين ، وإنما يتاجرون ، في هذه الأمتعة

والعروض التي لاتأني من الريف ولا تصنع في المدينة ، وإنما تأتي من مصر ، هناك حيث الناس لا ينطقون كما نطق ولا يعيشون كما نعيش .
 عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث ، يجلبونها من مصر ويبيعونها في المدينة وفي القرى ، ويربحون منها الأموال الضخمة ، ويعيشون في بيوتهم عيشة السادة والأمرء : لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد . لا يأكلون الذرة ، وإنما يأكلون خبز الحنطة . لا يأكلون في أطباق النحاس . وإنما يأكلون في أطباق من الخزف . لا يسمحون لنسائهم أن يخرجن متبذلات ، وإنما يخرجن ملففات في هذه الثياب يتخذنها من الحرير ، وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاق ، وعلى أنوفهن هذه القصبات من الذهب الخالص أو من الفضة المذهبة .

عند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم ، والحياة في بيوتهم لينة ناعمة ، فالتمسى لنفسك ولا بتتلك بعض العمل في بعض هذه البيوت . قال ذلك شيخ العزبة ، ثم سمي لها أشخاصاً ووصف لها بيوتاً ووعدها بالمعونة . وانقضت أيام قليلة ولكنها ثقيلة ، كانت أمنا تدور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها ، وتعرضنا للخدمة ، كما تُعرض الإماء على السادة . ولكن هذه الأيام لم تتصل ، وما أسرع ما استقرت كل واحدة منا في بيت تعمل فيه بالنهار ، وتنام فيه الليل ، وولتني آخر الأسبوع ، فنقضى ليلة سعيدة رضية في حجرتنا تلك القنطرة الحقيمة ، قد حملت كل منا ما أتيج لها حملة من الطعام ، فنجتمع إلى طعامنا ، وننحدث عن أهلنا وقربتنا ، ثم عن ساداتنا وسيداتنا ، حتى إذا تقدم الليل أغرقنا في نوم هادئ لذيذ ، فإذا كان الصباح تفرقنا إلى حيث نعمل في بيوت التجار والموظفين .

وكنت أحسن الثلاث حظاً وأيمنهن طالماً ؛ فقد قدر لي أن أخدم في بيت مأمور المركز ؛ وكانت خدمتي غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسي ، ولكنني لم ألبث أن أحببتها ووجدت فيها لذة ومتاعاً . كلفت أن أصحب صبية من بنات المأمور كانت تقاربني في السن ، ولعلها كانت أكبر مني قليلاً .

كنت أرافقها في اللعب على ألا ألعب معها ، وأرافقها إلى الكتاب على ألا أتعلم معها ، وأرافقها حين يأتي المعلم ليلقي عليها الدرس قبل الغروب على ألا أتلقى الدرس معها .

كنت لها خادماً أخطئها من بعيد ، وأجيبها إلى ما تريد ، ولا أشاركها في شيء مما تعمل . ولكن « خديجة » كانت حلوة النفس ، رضية الخلق ، مشرقة الوجه دائماً ، مبتسمة الثغر دائماً ، ودیعة النفس ، رقيقة الحاشية ؛ فلم يطل ما كان بينها وبينى من البعد ، وإنما أشركتني في لعبها ، واختصتني بأحاديثها وآثرتني بأسرارها ، ولم تبخل عليّ حتى يبعث ما كانت تمنحها أمها من الحلوى ، أو من النقد لتشتري به الحلوى .

وما هي إلا أن تزول بيننا الكلفة ونصبح رفيقتين صديقتين . وسيدة انبئت تنكر ذلك أول الأمر ، ولكنها تدعن له بعد حين ؛ وإذا أنا اختلف مع الصبية إلى الكتاب فأتعلم كما تتعلم ، وأتلقى مع الصبية درس المعلم فأستفيد كما تستفيد ، وإذا ثياب الصبية تخلع عليّ فيقرب ما بينها

وبيني من اختلاف الزى ، وأختلس نظرات إليها ، ثم أختلس نظرات إلى المرأة ، فلا أكاد أحس بينها وبينى فرقاً ولا اختلافاً ، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هي لغة مصر ، وكنت أتكلم لغة فجة خشنة غليظة هي لغة أهل الريف من « بنى وركان » . وكنت أقلد في نفسى لغة خديجة فأحسها وأجيدها ، ولكنى حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد ، فردعتُ عن ذلك ردعاً عنيفاً . ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألقى أمى وأختى فكانتا تضحكان منى ضحكاً يخزبني ويردني إلى لغة الريف .

وأنفقت مع خديجة عاماً وعاماً لم ألق فيهما بأساً ولم أشك فيهما عناء ، وإنما عرفت فيهما الترف والنعيم ، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء ، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بينى وبين أمى التي كانت تعمل في بيت موظف من موظفي الدائرة السنية ، معتدل الحال متوسط العيش ، ولكنه أميل إلى حياة الريف ، وأحرص على تقاليد الفلاحين . وبعد فيهما الأمد بينى وبين أختى التي كانت تعمل في بيت مهندس الري ، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم . ذلك الشاب الذي كان يعيش وحيداً في دار واسعة ، تحيط بها حديقة جميلة نضرة ، ولا يعيش معه فيها إلا خادم ريفي ، يحرس الدار ويعنى بالحديقة ، وإلا أختى تنظف الدار وتعنى بمتاع الشاب ، وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم المدينة ، فيصيب منه القليل ، ويتركه أكثره لخادميه .

وكنت أرى أختى تشبّ مسرعة ، ويستدير جسمها استدارة حسنة ، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال ، ولكنها ظلت كما أقبلت من

ريفها المتبدى ، ريفية بلوية ، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب .
 ولا تحسن من أمور الترف شيئاً كما كنت أحسن منها أشياء .
 وفي ذات يوم التقينا آخر النهار في حجرتنا تلك الحفيرة القنرة ،
 وكنت قد أخذت أكره هذا اللقاء ، وأضيق بهذه الحجر ، وأود لو
 أغفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع ، ولو استطعت أن ألقى أمي
 وأختي من حين إلى حين حيث كانتا تعملان . ولكن أمنا كانت صارمة
 حازمة ملحّة في الصرامة والحزم ، لا تغير من عاداتها شيئاً ، فكنا نلتقى
 آخر الأسبوع دائماً ، وكانتا تضحكان وتنعمان بهذا اللقاء ، وكنت
 أتكلف معهما الضحك وأتكلف معهما النعيم .

فلما كان ذلك اليوم والتقينا مع المساء ، لم أر بشراً ولا ابتساماً ، ولم أر
 بهجة ولا اغتباطاً ، وإنما أحسست صمتاً عميقاً مريباً ، ورأيت وجهين
 كئيبين مظلمين ، وخيل إلى أني أرى دموعاً تضطرب في عيني أمنا
 ولا نستطيع أن تنحدر . وهممت أن أسأل عما أرى ، فأعرضت أختي عني
 إعراضاً ، وأشارت إلى أمي أن لا تسألني .

وقضينا وقتاً طويلاً ثقيلاً في هذا الهم الممض الذي لم أكن أفهمه
 ولا أتبين له مصدراً .

ثم انقطع هذا الصمت فجأةً بجملة واحدة لم أسمع بعدها شيئاً ، ولم
 أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح ، صدرت هذه الجملة عن أمنا
 فوقعت في قلبي موقع الصاعقة ، ولقيتها أختي بوجوم غريب ، رفعت
 عينيها إلى السماء ، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض .
 قالت أمنا : إذا كان الغد فسرتحل عن المدينة المشثومة !

لقد هممت حين سمعت هذه الجملة أن أنكر ، وأن أمتنع ، وأن
أناقش وأجادل ، ولكن أمنا قالت هذه الجملة بصوت حزين بعيد محطم ،
فلم أستطع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان .

وذكرت ما ألم بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن
الفاجر . ذكرت ما حرق فؤادها من الغيرة ، وما آذى نفسها من الذل ،
وما روع قلبها من الخوف .

ثم ذكرت ذلك الخطب الذي ألم بها فهدتها هدأ حين جاءها النبأ بأن
زوجها قد صرع ، وبأنه قد صرع فيما لا يشرف به صريع .

ثم ذكرت هذه الآلام التي لا حد لها ، والتي غمرتها كما يغمر الماء
الغريق ، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً ، وحين أخرجتها من القرية ثم نفثها
مع ابنتها من الأرض .

ذكرت هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل ، ولم أزد على أن
أظهرت الطاعة والإذعان . والله يعلم أي ليلة قضيت ساهرة حائرة ثائرة ،
لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأى . حتى إذا كان الصباح هضت
أمنا فأمرت أن نستعد للرحيل . قلت : أفلا نؤذن سادتنا بهذا الرحيل ؟
قالت في صوت هادئ حزين : إن كان يؤذيك فراقهم فأقيم فسرحل
نحن . قلت باكية : إن فراقهم ليؤذيني لكنى لن أستطيع أن أقيم ، وإنما
هبطت معكما هذه الأرض ، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل .
قالت : فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا ، أليس أبوها مأمور المركز ؟
أفئن تعلقت بك وكرهت فراقك يُخل بينك وبين الرحيل ؟ قلت : إذن فلنرحل .
وما هي إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة ،

وانتقلت بنا من قرية إلى قرية نحو الغرب ، حتى إذا بلغ منا الإعياء أقمنا
حيث كنا نستريح وننتظر الصباح .

٤

ويتهى إلى صوتك أيها الطائر العزيز ، وأنا أسبح في نوم غير عميق ،
وأرى من الأحلام صوراً قريبة مألوفة تمثل لي خديجة وهي تلعب وتدعوني
إلى أن أشاركها في اللعب . وتمثل لي سيدة البيت وهي تأمر وتنهى ، وتصعد
وتهبط ، وتذهب في تدبير بيئها وتجيء . وتمثل المأمور وقد أقبل مع
الظهر فاضطرب لمقدمه البيت ، ثم عاد إلى هدوء يوشك أن يكون السكون ،
ثم فرغ أهل البيت كلهم لهذا الرجل يعنون به ويتفرون على خدمته ،
كأنهم لم يخلقوا إلا له ، ولم يوقفوا إلا عليه .

وتمثل لي أموراً كثيراً مما كنت أراه في ذلك العهد السعيد القريب .
ولكن صوت الطائر العزيز يبلغني فيخرجني من هذا النوم الخلو إلى يقظة
مؤلمة لا أكاد أشعر بها حتى أحس غلظ المضجع وخشونة الفراش . وأين
يقع هذا الوطاء الحشن من الصوف قد بسط على الأرض الغليظة بسطاً ،
من ذلك الفراش الوثير الموطأ الذي كان يلقى لي غير بعيد من سرير خديجة
في تلك الغرفة الجميلة المترفة من بيت المأمور !

لم أكد أحس خشونة هذا الوطاء ، وغلظ هذه الأرض ، حتى ذكرت
أننا ننام عند مضيقتنا العمدة على سطح من سطوح الدار ، لا يسترنا سقف
وإنما تظللنا السماء ، وتكاد تغمرنا ظلمة الليل لولا هذا الشعاع الرقيق الذي

كان يترقق فيها من ضوء القمر ، وقد تقدم به الشهر غير قليل .
نعم ! وذكرت كيف انتهينا إلى هذه القرية مجهودات مكثودات آخر
النهار ، نجلس إلى شجرات من التوت ساعة وبعض ساعة نستريح ،
لا تكاد واحدة منا تتحدث إلى صاحبتي بشيء ، حتى إذا طال علينا
الصمت ، وشقت علينا الراحة ، وثقل علينا التفكير ، قالت أمنا :
ما أظن أننا نستطيع أن ننفق الليل جالسات إلى هذا الشجر ، وما أرى أننا
نستطيع أن نجد من يؤوينا أو يضيفنا في هذه القرية التي لا نعرف من
أهلها أحداً ولا يعرفنا من أهلها أحد إلا العمدة ، فيجب أن يكون بيته
مفتوحاً لكل غريب طارق بليل أو نهار . ثم نهضت متثاقلة ونهضنا معها ،
ومضت متباطئة ومضينا معها ، حتى انتهت إلى دار العمدة ، لم تسأل عنها
ولم تستدل عليها ، وإنما مضت إليها كأنما كانت تعرفها من قبل . هنالك
رأينا جماعة من الناس قد جلسوا أمام الدار على مصطبة عظيمة ، وتوسطهم
رجل شيخ لا تكاد العين تقع عليه حتى تثق النفس بأنه عمدة القرية . فلما
بلغنا مجلس القوم ولحظتنا أبصارهم ، تقدمت أمنا إلى الشيخ الوقور وقالت
في صوت هادئ متزن : غريبات قد طرقت القرية في هذه الساعة المتأخرة
من النهار فأوينا ياعمدة حتى يُسفر الصبح . قال الرجل : على الرحب
والسعة . ثم دعا فأقبل إليه غلام من داخل الدار ، قال : خذ هؤلاء النسوة
إلى دار الضيافة ومُرّ بإكرام مشواهن .

ومضى الغلام ونحن نتبعه حتى انتهى بنا إلى دار الضيافة ، فإذا بناء
متواضع قد انبسط أمامه فناء عظيم ، فأدخلنا إلى بعض حجراته وقيل لنا
أقمن هنا حتى ياتيكن الطعام .
وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى اتصلنا بمن في الدار من أضياف

وخدم ، قد اختلط بعضهم ببعض فكأنهم جميعاً أصحاب البيت ، ثم اتصلت الأحاديث واختلطنا بمن وجدنا ، فأمسينا وكأنا منهم .

وكان العشاء الغايظ ، وكان السمر المضطرب المختلط ، ثم كان التفرق إلى المضاجع ، فمنا من آثر الهواء الطلق فاتخذ مضجعه على سطح الدار أو في فنائها ، ومنا من أشفق من ذلك فأوى إلى الغرفات والحجرات . وقد رغبت « هنادى » في السطح وشاركتها في هذه الرغبة ومضينا معاً ننتظر النوم ، وكنت أحدث نفسي بأن هذه الخلوة إلى أختي قد تكشف لى عن بعض ما يخفى على من أمر .

ولكنى لم أكد أجلس إليها أحاول أن أصل الحديث بينها وبينى حتى لقيتني بذلك الإعراض المثلوج الذى اقميتنى به أمس ، ثم أشاحت بوجهها ومضت في صمتها ، وأقمت أنا إلى جانبها حائرة لا أدرى كيف أقول .

ثم استلقيت وأرسلت نفسي في فضاء هذا الليل العريض تلتمس ما يلهيها عن هذه الموموم الغامضة المستغلقة التى لم أكن أعرف منها إلا ثقلها . ولكن هذه النفس لم تكد تمضى في ظلمة الليل حتى أدركها موج من هذا النوم اليسير فأخذت تسبح فيه ، وليت كذلك حتى أخرجها منه هذا الطائر العزيز . ذكرتُ هذا كله حين استيقظت ، ومرت بي خواطره مسرعة في حين كنت أحاول أن أتبين أين أنا وكيف انتهيت إلى حيث أنا ، وفي حين كنت أفتح عيني وأديرهما من حولى كأنما أريد أن أستكمل شخصى حين أتبين حقيقة المكان الذى أنا فيه ، وفي حين كنت أمد ذراعى عن يمين وشمال ، وأمد ساقى كأنما أريد أن أستمد لجسمى ما أفقده هذا النوم اليسير من نشاط ، وكأنما كنت أمحو عنه ما تركت فيه هذه الأرض الغليظة من ألم .

ثم أستكمل شعوري وأجد نفسي كما كنت قبل أن يغمرني النوم ، وأحس كأن شخصاً قائماً غير بعيد مني ، فأبتين هذا الشخص فإذا هي أختي قائمة جامدة لا تكاد تأتي حركة ، ولا تكاد تحس شيئاً ، وكأنها لا تكاد تفكر في شيء .

إنما هو شخص مائل ذاهل قد قام في شيء من الجمود المؤلم ، ورفع رأسه إلى السماء كأنه كان ينتظر منها شيئاً ، وكأنما أبطأ عليه ما كان ينتظر منها فجمد في مكانه لا يستطيع منه انتقالاً .

وأنت أيها الطائر العزيز تلتقي في الليل العريض المظلم نداءك البعيد العذب ، فيصل إلى نفسي فيحييها ، ويوقظ فيها الذكرى ويبعث فيها الأمل ويشيع النشاط ، وأختي مائلة ذاهلة كأن صوتك لا يبلغها ولا ينتهي إليها . ومع ذلك فما عهدتها صماء ، ولا عهدتها تحسن الحزن أو تجيد الاكثاب ، إنما أعرفها فرحة مرحة ، تحب الضحك ولا تحتاج إلى أن تدفع إليه ، وإنما تحتاج إلى أن تدفع عنه . أين هي ؟ ما بالها جامدة هامدة لا تسمع ولا تحس ؟ لعلها قد أرسلت نفسها كما أرسلت نفسي تسبح في هذا الليل العريض فأبعدت نفسها في المسعى وتركت جسمها مائلاً بلا روح ؛

نهضت من مكاني في هدوء ، وسعيت إليها في أناة ، حتى إذا بلغتها مسست كنفها مساً رقيقاً ، فإذا رعشة عنيفة تجرى مسرعة في جسمها كأنها رعشة الكهرباء ، وإذا هي تجفل كالخائفة ، ثم تأمن وتسكن حين تسمع صوتي وأنا أقول لها : لا تراعي ، فأنا أحتك آمنة ، ما وقوفك الآن على هذا النحو مائلة ذاهبة النفس ، كأنك الصم ؟ ماذا تنتظرين من

الليل ؟ وماذا تتبغين من السماء ؟ قالت وقد هوت إلى الأرض كأنها البناء المهدم وصوتها مضطرب ممزق ، يتمزق له قلبي كلما ذكرته : لا أنتظر شيئاً ولا أبتغي شيئاً . . .

ثم عادت الرعدة السريعة فهزت جسمها هزاً ، ثم انهمرت دموعها انهاراً ، ثم احتبس صوتها فإذا هي تضطرب اضطراباً عنيفاً ، وتسفح دمعاً غزيراً ، وترسل أنفاساً عنيفة متقطعة ، وأنا أجثو إلى جانبها وأضمها إلى وأقبلها ، وأحاول أن أرد إليها الهدوء والأمن وسكون النفس ما وسعني ذلك ، حتى إذا مضى وقت غير قصير سكن جسمها بعد اضطراب ، وانطلقت أنفاسها بعد احتباس ، ومضت دموعها تنهمر ، وأوت إلى ذراعي كأنها الطفل قد استسلم إلى أمه الرعوم ، وأطمأن رأسها إلى كفتي ، وقضت كذلك لحظة ما نسيت ولن أنسى عذوبتها . وما أرى إلا أنها أحست هذه العذوبة ! فقد ثابت إليها نفسها وراجعها رشدها ، وليثت حيث كانت حتى بعد أن سكنت دموعها ، كأنما أعجبها مكانها مني ، وكأنما وجدت شيئاً طالما كانت تتوق إليه فلا تجده ولا تظفر به . ثم سمعتها تقول بصوت خافت بعيد : لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أي لا منك أنت أيها الأخت الصغيرة ؛ فإنك لم تخلقى لتدلي أختك وتمنحها مثل هذا العطف والحنان . . .

يا لك من ليل مظلم عريض تضطرب فيه هذه الأضواء الضئيلة البعيدة التي تفتي ، ويسسط عليه هذا السكون المخيف ظلالاً لا حد لها ، ثم يندفع فيه من حين إلى حين صوت هذا الطائر العزيز كأنه سهم مضى ينطلق في بحر من الظلمات !

كل شيء هادئ مطمئن من حولنا حتى نفس هذه الفتاة التي

كانت نائرة منذ لحظة فقد اطمأنت وسكنت ، وانتهت إلى حال تشبه النوم . وإني لأخذ نفسي بالهدوء وأكرهها على الاطمئنان ، وألزم جسمي السكون في هذا الوضع الذي هو عليه ليبقى هذا الرأس البائس المحزون مستريحاً إلى هذه الكتف الصغيرة الخنون .

ولكن الفتاة ترفع رأسها وتستوى جالسة ، ثم تبسط ذراعها فتطوق بها عنقني ثم تضميني إليها ، ثم تقبلني ، ثم تقول : إياك أن تفعل ما فعلت أو تُخدعني كما خُددتُ أو تدفعني إلى مثل ما دُفعت إليه . إنك إن تفعل ترى نفسك في مثل ما ترينني فيه الآن من الجزع والهلع ، ومن اليأس حتى من رحمة الله ، ومن القنوط حتى من رَوْح الله الذي لا يقنط منه إلا الكافرون .

قلت : وماذا فعلت إذن ؟ وما هذا الشر الذي دُفعت إليه ؟ وما هذا اليأس الذي تغرقين فيه ؟ وما هذا الهم الثقيل الذي صُب علينا صباً ولم تكن ننتظره ولا نتوقع له مقدماً ؟ قالت وهي تقبلني : لست أدري أحدثك بذلك أم أكتمك إياه ؛ إني لأعتدي على سنك أن تحدثت إليك ، وإني لأعرضك لمثل ما أنا فيه إن كتمت الحديث .

قلت : فإن صمتك لن يعني الآن شيئاً ؛ فقد عرفت أن همماً ثقيلاً ألم بنا ، وأن حزناً ممضاً يمزق قلبك وقلب أمنا ، وأن يأساً مهلكاً قد استأثر بنفسك استئثاراً ، وما أنا بمقلعة عن السؤال والبحث والتفكير حتى أعلم علم هذا كله . وإني لحمقاء إن قبلت أن أنزعَ من ذلك العيش الناعم السعيد الذي كنت أستمتع به دون أن أعلم لماذا أنزع منه نزعاً ، فحدثيني حديثك ، فمن يدري لعل فيه لي عظة ولك عزاء .

وارتفع الضحى من الغد فإذا ضوءه المتدفق يغمر فتاتين معتقتين قد
 أغرقتا في نوم عميق ، لا يوقظهما منه حرّ الشمس المحرقة ، ولا مسّ
 الأرض الغليظة ، ولا اضطراب الدواجن من حولها وهن يزدحمن على ما ينثر
 لهن من حب ، ويختصمن فيما يُصبّ لهن في الصحاف من ماء ، ويخفقن
 بأجنحتهن في الهواء مقبلات مدبرات ، واقعات طائرات ، ينادين ويتناجين
 ويتناغين ، قد ملأهن إشراق الصبح مرحاً ، فلأن الجوحياة ونشاطاً وحباً .
 وكان هذا كله كان يدعوني دعاءً ملحاً من أعماق النوم الذى كنت
 مغرقة فيه ، ويدنيني قليلاً قليلاً من اليقظة ، وإذا أنا أتلقى الحياة دون
 أن أمثل الحياة ، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط ؛ ثم أحس
 كأن شيئاً خفيفاً رشيقاً قد مسّ كفى مساً يسيراً فأنتبه ، ولا أكاد أفتح
 عيني وأنى بعض الحركة حتى أرى حمامة مذعورة قد ارتفعت غير مسرعة
 في الارتفاع ، ولم تكد تطير حتى وقعت في رشاقة وظرف غير بعيد ،
 فأستوى جالسةً وألتي نظرة إلى أختي وقد تاب إلى حديثنا كله مرة واحدة
 فلأ قلبي إشفاقاً وحباً وحنناً . وتقع عيني عليها وقد اسراح جسمها المتعب ،
 واستقر قلبها المضطرب ، وهدأت نفسها النائرة ، وذادت الراحة عن وجهها
 ذلك العشاء المظلم الكئيب ، فبدت نضرتة حلوةً مشرقة شائقة كأنها نضرة
 الزهر وقد تفتح لضوء الصبح وقطر الندى ، وإذا في هذا الوجه الهادئ
 النضر جمالٌ للعين ، وفتنة للعقل ، وامتعة للقلب ، وإذا أنا أنظر إليه فلا
 أكاد أحول عيني عنه ، مستريحةً "معجبةً" مكبرةً ، ولكنى أسمع من ورائى

صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إلى : انظري . . . انظري . . . وأطيلي النظر ! ألسنت تريبتها حسناء رائعة الحسن ؟
فألتفت وإذا أمنا جالسة تنظر إلى الوجه الذي أنظر إليه ، وما أشك في أن نفسها كانت تستعرض خواطر كالتى تختلف على نفسى ، وفي أن قلبها كان يتأثر بعواطف كتلك التى كانت تملأ قلبي ، فأسألها : ما جلوسك هنا في هذه الشمس المحرقة ؟ فتجيب : لقد كنت أملاً عيني بمنظر كما الجميل . . . ثم تنهض مولية في شئ من الإسراع وهى تغالب شجى يريد أن ينفجر ، وتحرص هى على أن يظل دفيناً .

وأقيم أنا في مكاني ذاهلة أو كالذاهلة ، أنظر إلى أختى التى لم تستيقظ بعد ، وإلى أمى التى تسرع مولية تريد أن تهبط أسفل الدار ، وأفكر في هذه الفتاة اليائسة وفي هذه المرأة البائسة ، وأسأل نفسى : أيهما أحق بالعطف وأجدر بالثناء ؟ وأسأل نفسى : أيهما أحق منى بالمعونة والنصر وبالتعزية والتسلية ؟ فكلتاهما في حاجة إلى العون ، وكلتاهما في حاجة إلى العزاء

هذه الفتاة البريئة لم تعرف بؤس النفس قبل الآن ، وهى تستقبل الشقاء الآن مظلماً قائماً ثقيلاً ملحاً ، لم تدعه ولم تسع إليه ، وإنما أكرهت عليه إكراهاً وأغربت به إغراء ، ثم دُفعت إليه دفعاً ، وهى الآن غريق مشرقة على الموت ، تريد أن تقاوم وتجاهد الموج ما وسعها الجهاد لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به .

وإنها لى ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة "ثمامة" تستطيع أن تستمسك بها وتستبقى فضلاً من أمل ، وحظاً من رجاء .

وهذه المرأة التي لم تبلغ الشيخوخة بعد ولكنها قد فرضت على نفسها حياة الشيوخ: حرمان متصل، وانصراف عن كل ما في الحياة من لذة، وإعراض عن كل ما في الحياة من متاع، واكتفاء بما يقيم الأود ولا يدنى من الموت، ونظر متصل إلى هذا الماضي القريب الذي يملؤه الحزن ويفعمه الأسى، وتضطرم فيه هذه النيران التي تحرق قلب المرأة حين تحب، فلا يسعها الحب، ولا تلقى ممن تحب إلا خيانة وخداعاً وغدراً.

ولإنها لفي ذلك محزونة لأمسها، يائسة من غدها، معرضة عن يومها، وإذا الحياة تنكشف لها عن خطب جديد ثقيل، ليس أقل نكراً ولا أهون أمراً من تلك الخطوب التي بلبتها في حياتها الماضية، فهي تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عوناً ولا نصيراً.

لقد أنكرتها الأسرة وجفاها الأهل ونفها القرية، وأصبحت وحيدة تعول ابنتين بائستين، وإذا هي تُنكب في إحداهما لأمر لا تعلمه وقضاء لم تكن تنتظره. كلتاها بائسة، وكلتاها شقية، وكلتاها خليقة أن تجد من الأخرى ما تحتاج إليه في هذا كله. ولكن هذه النكبة الملمة، والكارثة الملحة قد باعدت بينهما: فالأم محنقة على ابنتها: والفتاة نافرة من أمها، لا يتصل بينهما حديث ولا تثبت عين إحداهما في عين الأخرى، إنما تتفاهمان بالإشارة أو الجمجمة، فإذا التقت أعينهما فما أسرع الإطراق إلى رأسهما! ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة متحولة إحداهما إلى أن تولى مديرة لتناى عن صاحبها فلا يكون بينهما نظر ولا حديث.

هل أستطيع أن أرد ما بينهما إلى طبيعة الصلة بين الأم البائسة

والابنة المخزونة؟ بل هل أستطيع أن أعيد الأمر بيننا إلى شيء مما كان عليه قبل هذه الكارثة من هذه المودة السهلة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ولا رياء؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين نمضي، وماذا تريد بنا أمنا هذه التي تأمر وتنهى في لهجة حازمة صارمة وإيجاز مقتصد لا يقبل حواراً ولا جدالاً؟ ذلك أجدر أن أفكر فيه، وأحرى أن أسعى إليه. فلا تبعن أذى إذن ولا تلتظفن لها، ولأسألها في أناة ومودة ورفق حتى أعلم علمها، ثم أنظر بعد ذلك فيما آتت، أو فيما يمكن أن تأتي من الأمر.

كل هذه المعاني تضطرب في نفسي، وعيني لا تكاد تفارق هذا الوجه الهادي الذي يدل هدووه على أن أختي ما زالت في تلك الأعماق البعيدة التي كذت فيها منذ حين، لم يبلغها ضوء الشمس وحرها، ولم يؤذيها مس الأرض وغلظتها، ولم يصل إليها اضطراب الدواجن وما تملأ به الجو من نشاط ومرح وصباح.

فأنهض متناقلة مترفة حتى أهبط فناء الدار أتمس أمنا، وما كان أيسر الوصول إليها! فقد اعتزلت غير بعيد من السلم وجلست منحنية تعبت في الأرض بأصابعها عبثاً يدل على شيء من الذهول، كأنما كانت تناجي همماً ثقيلاً أو تتبع خاطراً بعيداً؛ حتى إذا بلغتها مسست رأسها بيدي وسألتها مداعبة: ما هذه اللعبة التي تلعبين؟ وهلا دعوتني لأكون شريكك في اللعب؟! فإن مثل هذه اللعبة لا تستقيم إذا انفردت بها لاعبة واحدة...

قالت وقد رفعت إلى رأساً حزيناً: أترينني ألعب يا ابنتي؟ قلت: فما عسى أن تفعل بهذا التراب الذي تذهب فيه أصابعك وتجيء؟ ثم أنهضها فلم تمتنع علي، ومضيت بها إلى ناحية من الفناء

لا يكثر فيها اضطراب الأضياف ، ونظرت إليها فإذا هي تنقاد إلى مستسلمة ، وإذا حزنها العميق وحنانها القوي قد فاضا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال .

هنالك أحسست من نفسي قوة ، وشعرت كأني أنا الأم « زهرة » وكأنها هي الفتاة « آمنة » ، فاتخذت صوتها ولمجتها وألقيت عليها في غير تكلف هذه الأسئلة : ماذا تريدين؟ وماذا تصنعين؟ وأين تذهبين بنا؟ قالت وقد انحدرت دموعها : لا أصنع شيئاً ، ولا أدري أين أذهب بكما ، وإنما أريد أن أنأى بكما عن هذه المدينة الموبوءة . قلت : ولكن إلى أين؟ قالت : سري . قلت : ومتى نرى؟ قالت : لا أدري . قلت : فقد ينبغي أن تدري ؛ فما يحسن بثلاث من النساء أن يهمن في الريف على وجوههن ، تلفظهن قرية وتتلقاهن قرية أخرى ، يؤويهن هذا العمدة وقد يردهن ذاك . قالت : فهاذا تشيرين؟ قلت : أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين تلك الدور التي كنا نحيا فيها حياة أمن وهدوء . . .

وهنا أخذتها رعدة قوية وقالت في غضب وحدة : أي أمن وأي هدوء ! إنك إذن لم تعلمي . قلت : بل علمت . قالت : وقد اجترأت البائسة على أن تلتقي إليك هذا الحديث ! ألم يكفها ما اقترفت من الإثم ، وما انغمست فيه من الدنس حتى أرادت أن تكوني لها شريكة ! قلت في رفق : دعها وما هي فيه الآن وعودي بنا إلى ما كنا فيه :

أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين ما كنا نستعين به على الحياة من عمل ، فإني أرى أن نلتمس العمل في قرية من هذه القرى عند غنى من هؤلاء الأغنياء . قالت : لقد فكرت في هذا ، ولكني أرى

أن ليس إليه من سبيل ! فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأمن ،
ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو زوج . قلت : فليس لنا
أب ولا أخ ولا زوج ! قالت : بل لنا من يحمينا ، وقرينتا التي نفينا عنها
أحقّ بنا ونحن أجدر أن نعود إليها . ولئن بلغناها ليعلمنّ الذين جفونا
ونفونا أن من العار أن تنفى الأسر نساءها وكرائمها ! فالمرأة عورة يجب
أن تستر ، وحرمة يجب أن ترعى ، وعرض يجب أن يصان .

قلت : فأنت تريدين إذن أن تعودى إلى تلك الحياة البائسة التعسة
التي كنت تحيينها بين قوم لا ينظرون إليك إلا شزراً ، ولا يعطفون عليك
إلا كرهاً ، ولا يتحدثون عنك إلا في سخرية ورحمة شر من السخرية ؟ !
قالت : نعم ! فكل هذا أهون مما لقينا ، وكل هذا أهون مما يمكن أن نلقى
إن مضينا في هذه الحياة الهائمة التي لم نخلق لها ولم تخلق لنا . ولقد انقطعت
تلك الأسباب التي كانت تدعو إلى جفاء الأسرة وإعراض ذوى القربى
وسخر الأعداء ورتاء الأصدقاء . لقد انقطعت تلك الأسباب وبعد بها
العهد . ولئن بلغنا قرينتا ليدكرن الناس بعض أمرنا حيناً من الدهر ، ثم
لا يلبثون أن ينسوه وأن ينسوننا ، ولا نلبث نحن أن نغمس في حياتنا الأولى
ونعيش بين أهلنا بائسات ، ولكن آمنا .

قلت : وتريدين أن تبلغ هذه القرية ساعيات على أقدامنا ، تنتقل
من ريف إلى ريف ، ونستضيف هذا يوماً وذاك ليلة ، وقد أعجلتنا
بالرحيل عن كل أمرنا ، فتركنا متاعنا وما اجتمع لنا عند من كنا نعمل
عندهم ! قالت : سترين ، فلن ينالكما جهد ، ولن يمسنّ حياء كما أذى ، سنقيم
هنا حتى يأتى من يحملنا إلى قرينتا ويبلغنا مأمنايين الأهل والأصدقاء .

قلت : وكيف يستقيم لنا هذا ؟ قالت : علمت منذ أصبحت أن اليوم في القرية سوق يجتمع فيه الناس من أطراف الريف ، فلاسعين بين الناس والبائعات ، فلن أعدم بينهم رجلا أو امرأة من أهل قريتنا أو من أهل قرية مجاورة ، فلاحملنه رسالة إلى أهلنا ، ولن يتم الأسبوع حتى يكون أخي هنا قد أقبل يحملنا إلى حيث ينبغي أن نعيش .

وهمت أن أمضي معها في الحديث ، ولكن حركة عنيفة قطعت علينا ما كنا فيه . فهؤلاء نسوة قد أقبلن يحملن الحفان والأسفاط ويدعون إلى الطعام .

ويسمع الأضياف دعاءهن ، ويرى الأضياف مقدمهن فيستجبن للدعاء ويسرعن إلى الطعام ، ولا بدّ من أن نستجيب كما استجبن ، ومن أن نسرع كما أسرعن ، لا بدّ من أن أصعد فأنبه أختي هذه التي لا تريد أن تفيق من نومها الطويل بعد أن كانت لا تريد أن تخرج من أرقها الطويل .

فأصعد ، ولكنني لا أكاد أبلغ آخر السلم حتى أراها قائمة ساهمة حيث رأيتها من الليل حين أيقظني طائري العزيز .

وأقبل من في الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء القرية البائسات على الطعام مسرعات يتزاحن بالمناكب، ويتدافعن بالأيدى ، ويتزاجرن باللفظ واللحظ، ويرتفع في أثناء ذلك منهن دعاء لصاحب الدار أن

يوثق الله حزامه ، ويعلى مقامه ، ويصرف عنه الداء ، وينصره على الأعداء .
ونحن نسعى وجلات خجلات ، يدفعنا الجوع والأدب ، ويمسكنا
الحياء والاحتشام ، حتى إذا استدارت الجماعة حول الجفان قلّ الكلام ،
وقرت الأجسام ، واضطربت الأيدي وعملت الأفواه .

وأنا أرى هذا كله فيؤذيني منظره ويقع من نفسي موقعا أنيما .
ما أبعد ما بين هذه الأيدي الغليظة الحشنة قد تقلص جالدها وتقبّض ،
وهي تغوص بما فيها من الخبز غوصاً في القصاص فتصيب منها ما تستطيع ،
وما بين تلك الأيدي الرقيقة الرفيعة الناعمة المترفة التي لم تكن تمتد إلى
الأطباق إلا هينة ، والتي لم تكن تمسّ ما في الأطباق إلا بهذه الأدوات
التي يعرفها أهل المدن خاصة بل يعرفها المترفون من أهل المدن خاصة !

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاغرة التي يلقي فيها الطعام إلقاءً على
عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدده الحلوق ! وكأن الطبيعة لم تودع
هذه الأفواه حساً تجد به لذة ما تأكل وما تشرب ، وإنما اتخذتها طريقاً
إلى الحلوق ثم إلى الأجواف ، وما بين تلك الأفواه الصغيرة الضعيفة التي
لم تكن تفتح إلا بمقدار ، والتي لا تلتهم ولا تلتقم ولا تنهى بما فيها إلى
حلوق تزدرد ، وإنما تطيل المضغ وتستمتع بما يمسه من الألوان ، ثم تنهى
به على مهل إلى حلوق تسيغه في أناة ورفق ، كأنما الأكل فن من الفنون
لا بدّ فيه من الروية واصطناع المهل والأناة !

ما أبعد ما بين هذه الجماعة التي حشرنا فيها حشراً في فناء هذه الدار ،
وما بين تلك الأسرة التي كنت أعمل عندها وأجد في خدمتها حين تجلس إلى
المائدة لذة ومتاعاً يعدلان بل يريان على ما كنت أجد من اللذة والمتاع حين

أجلس إلى طعامي مع رفاقي من الخدم بعد أن يتفرق سادتنا عن مائدتهم !
 أين أجد القدرة على أن أدفع يدي مع هذه الأيدي وأحرك في مع
 هذه الأفواه ! إنما أنا جالسة بين هؤلاء النساء أنظر إليهن ضيقةً بهن ،
 وأتلهى عن الجوع بهذا الخبز الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدي
 وأصيب منه قليلاً بين حين وحين . وأمّا تصيب من الطعام في قصد
 واعتدال ، قد حال الحزن والحياء بينها وبين إرضاء حاجتها إلى الغذاء . وأختي
 وأجمة ساهمة كأنها في أرض غير هذه الأرض ، وفي حياة غير هذه الحياة .
 ثم تفرغ الجفان ويتفرق النساء جماعات ، ونهم نحن أن نتتحي
 ناحية ، ولكننا لا نكاد نبلغ من ذلك ما نريد حتى يدركنا نسوة ثلاث
 يجلسن حيث نجلس ويأبين إلا أن يأخذن معنا في الحديث . تقول
 إحداهن وكانت امرأة تختصم على وجهها أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة ،
 ويحفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عذوبة مغرية وميل إلى
 الفكاهة ظاهر : ما رأيت كالיום نسوة يستغنين بالأعين والآذان عن
 الأيدي والأفواه وعن الألسنة والحلوق والأجواف .

ها أنتن أولاء بيننا منذ أمس ، وما سمعنا لكنّ صوتاً ولا عرفنا من
 أمركن شيئاً . وها أنتن أولاء تستدرن معنا حول الطعام فلا تكدن تمددن
 إليه يداً ولا تكدن تصبن منه حظاً ، كأنما يغذيكن النظر إلى الطاعمات
 وهن يلتقمن ويلتهمن ويزرددن ، وكأنما يرضى حاجتكن إلى الحديث
 الاستماع للمتحدثات ! ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد من
 في الدار مكاناً ، وسمعها من غير شك من كان خارج الدار ، وانتشر
 معها في الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المحبون . حتى إذا

فرغت من ضحكها وجرّت الهواء إلى جوفها جرّاً هو أشبه بالشهيق المثير
قالت : أهذا شأنكن بالقياس إلى كل ما تحتاج إليه النساء من لذة وراحة
ورضاً؟ إنكن إذن لبائسات .

قالت هذا ثم التفتت إلى أمنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تثيرها
إلى الحديث وتكرهها على الجواب ، ولكن أمنا لم تنطق بحرف ولم تعرف
كيف تلقى هذا السيل المنهمر من اللفظ ، وإنما انعقد لسانها انعقاداً ،
وظهر على وجهها اضطراب شديد ، ولم تثبت عيناها لعيني هذه المرأة
الجريرة اللعوب فغضّتهما ، وأطرقت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير
يلجّ عليه الكبار في السؤال عن بعض أمره فيمنعه الحياء من أن يجيب .
هنالك التفتت هذه المرأة إلىّ وقالت : هذه أمك صامته لا تقول ،

وهذه أختك واجمة لا أمل في أن تفهم ولا في أن تجيب ، فتكلمي أنت
فإني أرى في عينيك جرأة وعلى وجهك شيئاً يشبه القحة ، وما أظن أن في
عينيك ملحاً . . . ! قولي من أنتن ومن أين تُقبلن؟ وما خطبكن؟
وما إعراضكن عن الطعام؟ وما إيثاركن للصمت؟ قلت ولم أستطع أن أدفع
الضحك عن نفسي أمام هذا الهجوم المفاجيء الغريب ، وأمام إغراق
هاتين المرأتين الأخريين في الضحك ، وإغراق أمنا في الصمت ، وإغراق
أختي في الوجوم : وأنت من تكونين ومن أين تُقبلين؟ وما أنت وسؤالك
إيانا وإلحاقك علينا؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتها : ألم أقل لكما إنها « قارحة »
ليس في عينها ملح ، وإنها هي التي ستسمع لي وترد عليّ ! ثم التفتت
إلىّ وقالت : تحقيق . . . أسمعين؟ تحقيق . . . أنا مكلفة أن أخضعك
له ، ستعرفين من أنا ، وستعلمين أتى تعودت التحقيق مع النساء

ومع الرجال أحياناً والإلحاح في السؤال على أولئك وهؤلاء . . . ثم أرسلت ضحكها ورجعت شهبها، وسألتنى ملححة : من نكون ومن أين تقبل؟! وما زالت هذه المرأة تداعبنا وتلاعبنا عنيفة حيناً ولينة حيناً آخر ، جادةً حيناً وهازلة في أكثر الأحيان ، وصاحبها تعينها على بعض ما تريد من ذلك ، حتى أنسنا إليهن وتحدثنا معهن شطراً من الضحى ، وعرفت من أمرهن ما رغبت في ألا تنقطع الصلة بيني وبينهن ما أقمنا في هذه الدار ، وكن جميعاً من أهل المدينة التي أقبلنا منها ، قد بلغن هذه القرية معاً قبل أن نبغلهما نحن بساعات ، أقبلن راكبات وأقبلنا نحن سعيماً على أقدامنا . فأما هذه المحققة التي كانت تسأل وتلح في السؤال ، وتمازح وتغلو في المزاح ، فكانت امرأة عظيمة الخطر ، عرفت من أمرها فيما بعد ما كنت أجهل ، وتبينت أن اسمها كان شائعاً ذائعاً على جميع الألسنة وفي جميع الأنحاء لا في المدينة وحدها بل في كثير مما يحيط بها من القرى والعزب والضياع .

كان اسمها « زنوبة » وكان تاريخها حافلاً بالخطوب والأحداث ، كان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس . كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة ، وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يقدون على المدينة في فصل الشتاء ليشغلوا في معمل السكر . وكانت تفيد من فصل الشتاء هواً كثيراً ومالاً كثيراً وصوتاً بعيداً . حتى إذا تولى عنها الشباب شيئاً وأخذت تدنو من الكهولة قليلاً قليلاً آثرت ظاهراً من القصد ، وتكلفت شيئاً من الاعتدال ، وأسدت على مجونها ودعابتها ستاراً رقيقاً تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ إلى ما وراءه فتدل أصحابها على ما يبتغون .

سم اتصلت بالشرطة ورؤسائها في المدينة . وكانت وسيلتها إلى هذا الاتصال معرفتها للشبان ، ومخالطتها للرجال ، وانسلاها إلى بعض الدور واستماعها لكثير مما يلقي من الحديث ، وعلمها بكثير مما يقع من الحوادث ويلى من الخطوب . فكانت عيناً من عيون الشرطة تنفذ إلى كثير جداً مما لا تنفذ إليه عيون الرجال ، وكانت تفيد من ذلك مالا ، وتكسب من ذلك هيبة ، فكان الناس يخافونها ، ويتلفون لها . وكانت الشرطة تستعين بها استعانة خاصة خصبة حين يصرع صريع بالليل ، ويبحث المأمور وأعوانه عن القاتل فلا يظفرون به ، هنالك كانت تنقل إليهم ما تسمع من الأحاديث في بعض أندية الشباب وفي داخل كثير من البيوت ، وحين يعتدى اللصوص على دار من الدور ثم تعمي آثارهم وأخبارهم على الشرطة . وكانت أنفع ما تكون للشرطة وأقدر ما تكون على إعانتها حين يهاجم الطاعون أو الكوليرا أو أى وباء من هذه الأوبئة أهل المدينة وما حولها من القرى ، وحين تريد الحكومة أن تستكشف المرضى وتعزلم في تلك الخيام التي كان يكرهها الناس أشد الكره ويفرون منها أكثر مما يفرون من الموت .

هنالك كنت ترى «زنوبة» حركة متصلة كأنها النحلة ، لا تستقر ولا تهدأ ولا تعرف السكون والاطمئنان . هي في كل شارع وفي كل حارة وفي كل زقاق وفي كل بيت ، ونقالة الصحة من ورائها تجوب الشوارع والأزقة والحارات وتختطف المرضى من بيوتهم اختطافاً . وفي تلك الأوقات كان الناس يبغضون زنوبة أشد البغض ، ولكنهم كانوا يضطربون إلى لقاءها واحتمالها ، يبسمون لها ويلعنون الوباء لأنه لم يمسه ولم يحملها على هذه النقالة ولم يضطرها إلى هذه الخيم التي تضطر إليها الناس .

وقد جمعت زنوبة من كل هذه الحرف مقداراً لا بأس به من المال .
 فلما تقدمت بها السن بعض الشيء أخذت تستثمر ما جمعت وتنميته . وقد
 سلكت إلى ذلك طريقين : فهي من ناحية مرايية ، تقرض الجنيه بثلاثة
 أمثاله منجمة على العام ، وتشتري من الأسواق في المدينة والقرى ما تستطيع
 شراءه من الحب رخيصاً ثم تبيعه بين الفقراء والباشرين ، تشتط عليهم في
 الربح لأنها تصبر عليهم في اقتضاء الثمن . وقد زهد الشباب فيها وقل
 نشاطها إلى اللهو الجريء ، فبحثت ثم بحثت ثم اختارت لنفسها رجلاً
 من الخفراء غريباً عن المدينة وفد إليها منذ حين ، قوى البنية طويلاً
 ضخماً ، مخيف الصوت ، ولكنه على ذلك ضعيف النفس ، سيء الخلق ،
 مدخول الضمير ، فاتخذته زنوبة لنفسها زوجاً أو خليلاً ، وعاشت معه
 عيشة يقرها القانون وتكرها الأخلاق والدين ، وبمقها أهل المدينة أشد
 المقت . وهي حين رأيتها لأول مرة كانت قادمة على القرية التي كنا فيها
 لتشتري ما تستطيع شراءه من القمح والذرة والفول ، ثم لتعود به إلى حيث
 تمتص به أموال الفقراء والمعدمين .

ولم تكن « خضرة » أقلّ خطراً من زنوبة ولا أهون شأنًا ، وإنما كانت
 مثلها معروفة بعيدة الصيت ، يتحدث الناس بها وبأبنائها حين تخرج من
 المدينة وحين تعود إليها ، ويشقى بها الرجال والنساء جميعاً ، ويسعد بها
 الرجال والنساء جميعاً أيضاً .

كانت دلالة ، تفد إلى العاصمة من حين إلى حين ، فتجلب منها
 مقداراً غير قليل من هذه العروض الخفيفة اليسيرة الرخيصة التي هي
 مع ذلك فتنة للنساء وشقاء ومتعة للرجال . لم يكن في المدينة بيت مترف

إلا وبابه مفتوح لخضرة تدخله جهراً وتدخله سراً أيضاً. ونفس سيدة البيت مفتوحة لخضرة أيضاً تتلقى أحاديثها وتسمع أنباءها ، وقد تفضى إليها بالأحاديث ، وقد تحملها الرسائل والأنباء . وكان نشاط خضرة يشد ويعظم إذا كان الشتاء وجرت في النيل بواخر كوك مصعدة وهابطة ؛ فقد كانت خضرة تذهب إلى القاهرة وتعود ومعها ما تشتري من البضائع والعروض ، تصطنع هذه البواخر لأن أجور النقل فيها كانت يسيرة للدرجة الثالثة ، ولأنها كانت تستطيع أن تستصحب فيها من الحقائق والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تستصحبه في القطار .

كانت إذا عادت إلى المدينة تسمع بها الناس ، وانتظر النساء مقدمها عليهن وزيارتها لمن . وكانت أسعد السيدات هذه التي تظفر بزيارتها الأولى تسبق إلى خير ما عندها من ضروب الأقمشة على اختلافها ، ومن صنوف الأعطار ، ومن هذه الأدوات اليسيرة الهينة التي يحتاج إليها النساء ويتنافسن فيها ، ومن أنواع الخرز بنوع خاص ، ومن هذه الحلقات الزجاجية المختلفة التي يتخذها النساء حلياً لأذرعهن يعالجن لبسها علاجاً شديداً دقيقاً خطراً وقلما يفرغن من هذا العلاج دون أن تكون إحداهن قد أحدثت في يدها أو في ذراعها جرحاً بليغاً . وكان الأسبوع الأول لعودة خضرة من القاهرة عيداً متصلاً في البيوت للنساء والأطفال جميعاً ، أولئك يسعدن بما تعرض عليهن من عروض الزينة والمتاع ، وهؤلاء يسعدون بما تجلب لهم من الحلوى وجوز الهند ، ولا سيما هذه الحلوى التي كانت تجلبها خضرة من القاهرة والتي لم يكن من الممكن ولا من اليسير أن تصنع في المدينة ؛ فقد كانت رقيقة لينة لا تشق بمضغها

الأضراس ، وتجد فيها الأفواه والحلوق لذة لا مشقة فيها ولا عناء كهذه اللذة التي تجدها فيما يصنع في المدينة من الحلوى السمسمية أو الحمصية الغليظة اليابسة التي يتعاون على إذابتها الريق والأضراس واللسان فلا تبلغ منها ذلك إلا بمشقة وجهه .

وكانت خضرة تحمل إلى الفتيات النواهد فتنة لا تشبهها فتنة بهذه المناديل الملونة التي كانت تجلبها لمن والتي كن يَفْتَنِينَ في إدارتها حول رءوسهن وفي اتخاذها سجواً فتانة خلافة لشعورهن الثقال . ولا تذكر هذه الضفائر أو هذه الخيوط التي تنظم فيها قطع دقيقة رقيقة ضيقة من المعدن والتي توصل بالضفائر ، وبضفائر الفتيات النواهد خاصة ، فيكون لها على ظهورهن منظر حسن ، ويكون لها زنين حلو إذا مشين أو أتين بعض الحركات . وكان الرجال يحتملون عودة خضرة من القاهرة باسمين بل مغتربين أول الأمر ، يجدون في ذلك رصاً بريئاً وتلهية نقية للنساء والفتيات ، فإذا مرت أيام وكثر تردد خضرة على البيوت واشتد طمع النساء فيما تعرض عليهن من المتاع ، وظهرت رغبة النساء ملححة على وجوههن وفي حديثهن وفي تنكرهن للرجال حين يظهرون تمنعاً أو إباء ، ضاقوا بخضرة أشد الضيق ، وودوا لو تذهب مرة إلى القاهرة فلا تعود .

وكانت خضرة إذا فرغت من إرضاء نساء المدينة على اختلافهن في الطبقة والثراء ، تنقلب بما يبقى لها من سقط المتاع بين ما يحيط بالمدينة من قرى الريف . وهي في ذلك اليوم الذي لقيتها فيه كانت تزور القرية ومعها حقيبتان أو ثلاث فيها من هذه الدوائر الزجاجية ومن الخرز والمناديل الملونة ما لم تقبله المدينة وما تتلقاه القرى بلهفة شديدة ، وما لعله

يؤرق ليل كثير من الريفيات ويملاً أحلام كثير من عذارى الفلاحين .
ومن الخطأ أن يظن أن « نفيسة » كانت أقل شهرة من صاحبتيها
أو أيسر منهن شأنًا عند أهل المدينة وعند أهل الريف . كانت متقدمة
في السن قد بعد عهدا بالشباب ، وتركت الشيخوخة في وجهها وصوتها
وجسمها كله آثاراً قبيحة منفرة للنفوس ، ولكنها على ذلك كانت
دخيلةً في كل بيت ، صديقة لكل امرأة . كانت عرافة تقصّ ما كان
وتصف ما هو كائن ، وتنبئ بما سيكون . وكانت لها صلة قوية بالجن
والشياطين ، تسعى بالرسائل بينهم وبين النساء وتستخدمهم في كثير مما يشغل
حياة المرأة الجاهلة الساذجة التي لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على
الناس لا حدّ له . هذه ضيقة بزوجها لأنه يخونها أو يؤثر عليها ضررًا
فهى تستعين بنفيسة لتسلط عليه عفريتًا من الجن يصدده عن خليلته
أو عن زوجته . وهذه تحسّ من زوجها نشوزاً أو إعراضاً ، فهى تستعين
بنفيسة لتتخذ لها من الطلّسات ما يعطف عليها زوجها ويجعله قعيدة
دارها . ولم تكن نفيسة أقل تأثيراً في نفوس الرجال والشبان منها في
نفوس النساء والفتيات ؛ فقد كانت تحسن استشارة الودع وسؤاله عن
الغيب ، وقد كانت تحسن استعطاف النساء إذا ففرن أو أعرضن ، وقد
كانت تحسن تسخير الجن في قضاء ما يلتوى من الحاجات . وكانت
نفيسة مشغولة دائماً ، لا تكاد تستريح من السعى بالرسائل والحاجات
بين رجال المدينة ونسائها وبينهم جميعاً وبين الجن والشياطين . ولكن
شهرةً بذلك قد جاوزت المدينة ووصلت إلى القرى وتسامع بها أهل الريف
فأخذوا يسعون إليها ، ثم أخذت هى تسعى إليهم وتنتقل بينهم بسحرها

وطلسماتها وودعها . وهي حين رأيها كانت تزور القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أبناء الغيب .

ولم يكذب متصل الحديث بيننا وبين هؤلاء النسوة حتى كانت نفيسة أسرعهن إلى نفوسنا ، وأحرصهن على أن تمتلكنا وتصل بيننا وبين أصدقائها من الجن والعفاريت ، لم تجد في ذلك مشقة ولم تتكلف له جهداً . فهذه الفتاة الذاهلة التي لا تكاد ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تجيب خليقة أن تلفت العجوز الساحرة إلى نفسها ، وقد فعلت . . . فما أكثر ما تلح هذه العجوز في السؤال لتعرف ما بهذه الفتاة ! والفتاة لا تجيب ، وأمنا أشدّ منها حرصاً على الصمت وإغراقاً فيه . والسؤال يتجه إلى دونهما ، فأضطر إلى أن أزعم أن بأختي علةً قد أعيت الطبيب ، وداء لا نعرفه ولا نجد له دواء ، وما أيسر ما تفض السرة وينثر منها الودع على الأرض ! ثم ما أسرع ما تعمل فيه يد نفيسة جمعاً وتفريقاً ، وضماً ونزراً ، تلائم بينه وتخالف ، وتتخذ منه أشكالاً تقرأ فيها من أبناء الماضي والحاضر والمستقبل أعجب العجب .

إني لأراها الآن وقد مضت أعوام طوال منذ ذلك اليوم وهي تنظر في الودع وتطيل النظر ، ثم تظهر على وجهها هذه الآيات التي تدل على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع . وإني لأسمع صوتها المحطم الذي كان هامساً دائماً مهما يرتفع . وإني لأحفظ جملها منذ ذلك اليوم ما نسيها ولن أنساها . وكيف أنساها وقد صدقها الزمان ؟ نظرت إلى ودعها ، ثم أطالت النظر فيه ، ثم رفعت عينها إلى أختي فأطالت النظر في وجهها ، ثم عادت إلى الودع فأثبتت عينها فيه ، ثم رفعت رأسها وهي تقول للفتاة : إن أمرك يا ابنتي لعجيب ، إني أراك بين اثنين : أحدهما

يجبك وسيؤذيك ، والآخر آذاك وسيحبك ، وإنى لأحاول أن أفهم فلا أستطيع . والرأى لك يا ابنتى أن تستشيرى سادتنا من الجن أو سادتنا من الأولياء... وما أرى أن هذا عليك عسير ؛ ففي هذه القرية القريبة منا والتي تستطيعين أن تبلغها فى ساعة وبعض ساعة ما تحبين : فيها مقام سيدنا فلان ، وإنه ليأتى بالأعاجيب ، وفيها دار فلانة وإن قرينها من الجن ليحدث بالأعاجيب أيضاً . ولم تكذ نفيسة تنطق بالجملة الأولى من حديثها حتى وثبت أمتنا كأنما دفعت إلى الوثوب دفعاً آلياً ، وانطلقت مسرعة فلم نرها إلا بعد وقت طويل .

٧

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تنشر فى الجو المظلم الساكن نداءك السريع البعيد كأنه استغاثة المستغيث... ما خطبك؟ وما أنباؤك؟ وما الذى يغريك بى ويسلطك على؟! لا أكاد أمضى فى النوم حتى تسرع إلى فتوقظنى ، كأنما أخذت على نفسك أو أخذ غيرك عليك عهداً ألا تعلى بينى وبين النوم ، وكأنما كلفت نفسك أو كلفك غيرك أن توقظنى إذا تقدم الليل لتظهرنى من الأمر على ما كان خليقاً أن يفوتنى إن استسلمت للذة الأحلام...! ابعث نداءك سريعاً بعيداً أولاً تبعته فقد أيقظتنى ، وما أرى أنى سأعود إلى النوم دون أن أشهد شيئاً كالذى شهدته أمس حين كانت أختى ماثلة ذاهلة كأنما تنتظر أخبار السماء . إنى لأشعر بأنى سأراها ماثلة ذاهلة حيث رأيتها أمس ، وإنى لأنهى للنهوض إليها ، ولكن نداءك لا ينقطع ، إن لك لشأناً...!

ماذا ! إن جو الليل المظلم الساكن المهيب ليس خالصاً لك هذه الليلة كما تعود أن يخلص من قبل . ماذا أيقظ الطير ؟ فإنى لأسمع خفق أجنحتها ، وأحس كأنها منتشرة قد خرجت من أوكارها حائرة مضطربة في هذا الجو الخفيف . ماذا أيقظ الكلاب ؟ إنى لأسمع نباحها قوياً متصلاً بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تدعو من لا يسمعا .

ماذا أيقظ الناس ؟ إنى لأحس حركة خارج الدار ، وإنى لأسمعهم يتداعون ويتنادون ، وإنى لأشعر كأنهم يسرعون إلى غاية لا أعرفها .

ماذا أيقظ من في الدار ؟ إن الحركة من حولي لتكثر وتختلط وتشتد ، وإنى لأشعر بالفزع قد انتشر في الجو كما ينتشر الدخان الكثيف . وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز ما زال متصلاً سريعاً بعيداً ، كأنك لم توكل بإيقاظي وحدي ، وإنما وكلت بإيقاظ الناس جميعاً والأحياء جميعاً . انظر ! إن كل شيء قد استيقظ من حولك ، ولكن نداءك ما زال متصلاً سريعاً بعيداً . أتريد أن تتحدث إلى النجوم ؟ ولكنى أنهض لكل ما أحس حولي من حركة وضجيج وعجيج واضطراب ، فأسأل أختي هذه المائلة الذاهلة : ماذا حدث ؟ ولكنها لا تجيب كأنها لم تسمع شيئاً ، فيأخذني حنق وغيظ ، وأهزها هزاً عنيفاً وأنا أصبح بها : ماذا ! ألا تسمعين ؟ ألا ترين ؟ هنالك تنبيه وتجيبي في شيء من الوجل : ماذا تريدن ؟ فأتركها مستيئة منها وأهبط فناء الدار حيث اجتمع النساء يتسألن ويتجاوبن ، ويشد بينهن لفظ مختلط لا يكاد ينقضي .

هنالك أجد أمنا بين هؤلاء النساء ، شاهدة كالعائبة ، ومستيقظة كالنائمة ، تسمع ولا تقول . فإذا سألتها عما حدث أجابتنى في صوت

هادئ حزين : زعموا أن رجلاً قد قُتِلَ قريباً من القرية يقال له عبد الجليل ، وقد جاء الصريخ إلى العمدة فأيقظ رجاله وهو يستحهم لالتماس القاتل . وقضينا بقية الليل ساهرات نسمع ما يصل إلينا من الأخبار التي إن ابتدأت فلا نهاية لها ، وهي أخبار القتل في المدن والقرى وفي الحقول وعلى الطريق العامة . وقد زعم من حدثنا من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل الذي صرع الليلة قد كان أمراً محتوماً .

لقد كان هذا الرجل شيخ الخفراء في القرية ، وكان قوياً شديداً البأس عظيم السطوة ، وقد حمى القرية من اللصوص والمعتدين ، وكانت له في القوم آثار لم تُنسَسَ ، فهم يطلبونه بها . وقد اضطربت القرية منذ ليال لأن هذا الرجل أقبل وقد انقضى من الليل أكثره على بيت من البيوت ، فجعل يطرق بابه طرقةً عنيفاً ، ويدعو صاحبه بصوت كأنه الرعد أن أفقَ أيها المخنون فإن اللصوص قد اقتحموا عليك الدار . فذعر أهل البيت لهذا الطرق وهذا النداء ، وأسرع الرجل إلى الباب ، فما رآه إلا شيخ الخفراء يبرق ويرعد ويلح في التنذير ، ثم دخل الدار وطاف بجراتها وغرفاتها يلحتمس اللصوص ولكنه لم يجد أحداً . وقد استيقظ الناس واجتمعوا حوله وحول صاحب الدار ، وهو يقسم ويغلظ في القسم لقد رأى اللصوص يقتحمون الدار اقتحاماً .

منذ تلك الليلة تحدث أهل القرية بأن شيخ الخفراء قد تعرّض للموت ، وأنه إنما روع أهل تلك الدار ليلجأ إليهم ويأمن عندهم من طالبيه ، ومنذ تلك الليلة استيقن أهل القرية أن قوماً قد نذروا دم شيخ الخفراء ، وليسوا بمقلعين عنه حتى يقتلوه . وها هم أولاء قد وفوا بالنذر

وقتلوا عبد الجليل. وهاهو ذا العمدة يفرق رجاله في كل صوب ، يأمرهم باقتحام هذه الدار ، وبالبحث عن فلان والقبض على فلان والتوثق من فلان . وهذه القرية هائجة مائجة تسأل وتبحث ، وتستقصى وترتاع . وهذه جثة عبد الجليل طريجة غير بعيد من الحسر ، قد فارقها الحياة بعد احتضار طويل ثقيل ، وقد قام عندها الرجال يحفظونها في مكانها حتى تأتي الشرطة من المدينة ، وحتى يأتي المحققون . وقد أقبلوا جميعاً بعد أن ارتفع الضحى ، فأقاموا حول الجثة حيناً يسألون ويشرح الطيب . ثم أقبلوا نحو القرية ونساء الدار مشرفات ينظرن إليهم ، وهم يسعون إلى بيت العمدة ليشربوا القهوة ، ويمضوا في التحقيق ، ويصيبوا شيئاً من طعام .

وأنا مشرفة أنظر مع الناظرات . ولكن ماذا ؟ إنى لأراجع مسرعة وقد اضطرب قلبي اضطراباً لا يكاد يستقر معه في صدري ، وقد تكلفت جهداً عنيفاً لأحبس صبيحة كادت تنبعث من فمي ، وهذه أمى تجرتى إليها لا تقول شيئاً ولكنها تهبط معي فناء الدار ، ثم تهدئي بعض الشيء ، ثم تقول لى كالحامسة : إياك أن تظهرى أو أن تدعى هذا المكان فإنه والله إن رأك لم ينصرف حتى يستصحبك . ذلك أنى كنت قد رأيت المأمور . لماذا أكذب نفسى ! لقد هممت غير مرة أن أسعى إليه وأن أسأله عن خديجة ، وأن ألح عليه فى أن يستصحبنى ليردنى إلى تلك الحياة الناعمة وليحمينى من هذا الظلام الذى كنت أدفع إليه على غير إرادة ولا رأى .

نعم ! لقد هممت بهذا كله ، ولقد كدت أفعل ، ولكنى رأيت

أمى وما كانت تستصحب من بؤس قديم ، ورأيت أختى وما كانت تستقبل من بؤس حديث ، فأثرت شقاء هاتين الشقيتين على ما كنت أحب لنفسى من الخير ، وبقيت معهما أنتظر ما تضرر لهما الأيام .

٨

آمنة . . . آمنة . . . أقبل . هذا صوت أمنا ينتهى إلى ، وقد انتحيت ناحية مع زنوبة وخضرة على السطح ، نتحدث ألواناً من الحديث ، وأختى جالسة غير بعيد قد شغلت عنا بما يملأ نفسها من همّ وحزن ، فإذا سمعت الصوت أسرع إلى أمى فى الناحية الأخرى من سطح الدار ، فإذا هى قائمة قد ظهر عليها النشاط وانجلت عن وجهها سحابة الحزن التى كانت تُغَشِّيَة ، وهى تبسم وتشير بيديها وتقول لى : انظرى انظرى ! هذه والله إبل « بنى وركان » . فأنظر فأرى أعرايياً كأنه الشيطان وقد أناخ قريباً من الدار جملين عظيمين وأخذ يحط عن أحدهما بعض الأثقال . أمى مستبشرة مبهلة تشير وتلحّ فى الإشارة وتقول : ألم تعرفى خالك ناصرأ ؟ ألم تعرفى هذين الجملين ؟ عرفت خالى ، فما أكثر ما كنت ألقاه أيام الطفولة والصبأ ، وما أكثر ما كنت أخافه حين ألقاه ، وأكره منه هذا العنف الذى يبتدر كل من اتصل به ، وهذه اللهجة القاسية التى يمتاز بها حديثه ، وهذا الصوت القاطع الذى يلقى إليك الكلمات فى حزم وعزم وشدة لا تقبل مراجعة ولا تسمح بجدال !

نعم عرفت خالى ناصرأ ، وذكرت أنى كثيراً ما كنت أتقيه إذا لقيه ،

ولا أستجيب لدعائه إذا دعاني إلا كارهة ، ولا أطمئن إلى ما كان يظهر لي من مودة وعطف وحنان ، ولا أقبل إلا راغمة ما كان يقدم لي أحياناً من البلح والعجوة ، يريد أن يتملقني ويترضاني .

نعم ! عرفت خالي ناصراً ، وذكرت أني كنت سيئة الظن به ، شديدة النفور منه ، وأنى كنت ألوم نفسي أحياناً على سوء ظني وشدة نفوري . حتى إذا صُرع أبونا ورأيت كيف استقبل أمي بأبناء هذا المصرع وكيف قسا عليها وعلينا ، ولم يفكر في أنها أيمم وفي أننا يتيمتان ، وإنما فكر في الأسرة وحديث الناس عنها ، وما يجرح عليها هذا الخطب من عار . . .

ثم لم تكد تمضي أيام حتى أقبل ذات صباح ، مظلم الوجه قاسي اللحظ جاني اللفظ ، فأقعق أمنا بوجود الرحيل ، وأنبأها بأنه سيعد لهذا الرحيل عدته وسيصحبنا حتى يعبر بنا البحر ويبلغنا مأمننا في قرية من قرى الريف .

ثم جاء هذا اليوم الذي أخرجنا فيه من دارنا ، وأبعدنا فيه عن قرينتنا ونفانا فيه من أرضنا ، وصحبنا إلى قرية من هذه القرى المنتشرة وراء البحر ثم أسلمنا إلى القضاء ، وانصرف عنا راجعاً إلى حيث ينعم مع الأسرة بالدعة والخفض وبالآمن والهدوء .

منذ ذلك اليوم لم أشك في أن رأيت فيه لم يكن نخطأ ، وأن حكمت عليه لم يكن قاسياً ، وأن نفوري منه لم يكن إلا صورة صادقاً لما ينبغي لهذا الرجل الغليظ في قلب فتاة ضعيفة بريئة وادعة ، لم تجن على أحد شراً ، ولا تفهم أن يجني عليها أحد شراً . وكانت أمي وأختي تتبعانه

ببصريهما محزوتين لفراقه أشد الحزن ، وكأنه كان يمثل في نفسيهما صورة الوطن الذي نفينا عنه . أما أنا فكنت أنظر نحو الغرب الذي كان يوجه بصره شطره ، ولكني لم أكن أراه لأنني لم أكن أحفل به .

إنما كنت أحاول أن تنفذ عيني من هذه المسافة البعيدة والأمد المنفسح إلى هذه القرية المطمئنة التي أخرجت منها إخراجاً ، لعل أرى دارنا ، ولعل أرى هذا الفناء المنبسط أمامها ، والذي كنت ألعب فيه مع أترابي من الغلمان والبصيان ، ولكني لم أكن أرى القرية ولم أكن أرى الدار ، وإنما كنت أرى هذه الهضاب المرتفعة في السماء بعض الشيء ، وأقدر أن قرينتا تقوم هناك على هضبة من هذه الهضاب . وكنت أرى هذا الخط من الماء يحول بيننا وبين هذا السهل الجميل الذي ينبسط من دون هذه الهضاب ، والذي كنت لا أمضي فيه قليلاً حين نفينا من قرينتنا إلا أحسست كأنني أترك فيه قطعاً من نفسي أنثرها في أرضه الخضراء نثراً .

نعم ! عرفت خالي ناصرأ وهو قائم بإزاء جمليه بعد أن وضع أثقاله كأنه الشيطان ، وما تصوره قط إلا شيطاناً . ومنذ هذه اللحظة التي رأيته فيها يضع أثقاله وسمعته فيها يسأل عن صاحب الدار ، لم أزد إلا يقيناً بأنه شيطان . سأل خالنا عن صاحب الدار . وكان رجال العمدة قد دخلوا عليه فأنبأوه بأن رجلاً أعرابياً عليه مظاهر القوة والبأس والوقار والثراء ، قد أقبل يسأل عنه ، فخفت العمدة لاستقبال ضيفه ، وما زلت أراه يستقبل الأعرابي باسمأ وادعأ ، والأعرابي يحنيه في غلظة وجفوة ، ثم يقول له متعالياً : إن النبي قبل الهدية يا عمدة . يقول ذلك ويشير إلى أثقاله التي حطها عن جمليه إشارة المكبر لها الدال بها ، والعمدة يدعو

بعض رجاله ويشير إليهم أن احملوا هذه الأثقال وأريحوا هذين الحملين . ثم يدعوضيفه الأعرابي ، رقيقاً به شاكراً له ، إلى الراحة والدخول معه إلى الدار . وقد اطمأنت الدار بالأعرابي ، ولقى من كرم مضيفه وبشاشته ما أَرْضاه ، فلما مضت ساعة أو ساعات والناس مجتمعون حول عمدتهم يخوضون فيما تعودوا أن يخوضوا فيه من الحديث ، قال فجأة : إن لنا عندك ودائع يا عمدة ، فاردُدْ علينا ودائعنا ! فالله يأمر أن تؤدّي الأمانات إلى أهلها . قال العمدة : ودائعك محفوظة لك ، مردودة عليك يا شيخ العرب ، فما ذاك ؟ قال الأعرابي : امرأة أقبلت منذ أيام ومعها فئتان ، سألتك الضيافة فأويتها وآويت ابنتها وأحسنتم لقاءهن وأكرمت مثواهن ، ونحن أعرف الناس بحق الكرام . قال العمدة : وما أنت وهذه المرأة وابنتها ؟ قال الأعرابي : هي أختي . قال العمدة : فقد نزلن على الرحب والسعة ، وما فعلت إلا ما كان يجب علىّ ، وما نفع هذه الدور إذا لم تفتح لإبواء الغرباء ! ولكن ودائعك يا شيخ العرب لن تردّ عليك حتى تقيم بيننا حيناً فتسمع منا ونسمع منك ؛ فإن حديث الأعراب يلذنا ويرضينا ، وقد بعدَ عهدنا به منذ رحل عنا سعيد وأصحابه ، وكانوا قد خيموا في ظاهر القرية أشهراً ، ثم ارتحلوا لا عن قلى ولكن عن رغبة في الرحيل . واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين هذا الأعرابي حتى انقضت ساعات السمر .

أما أنا فلم أطعم النومَ في هذا الليل الطويل الثقيل ؛ لأن أخي لم تطعم فيه النوم ، ولم يحتج طائري العزيز إلى أن يوقظني بنداؤه السريع البعيد ، ولم أسمع منه هذا النداء كأنه عرف أني ساهرة مؤرقة فلم يحتج إلى تنبيهي ، فانطلق في الجو الفسيح ينبه غيري من الذين لم تورقهم الهموم والأحزان .

عدتُ إلى أختي كئيبة ضيقة الصدر متكلفة مع ذلك أن أخي ما أجد من الكتابة وضيق الصدر ، فأنبأها بمقدم خالنا وبأننا مرتحلات في أكبر الظن إذا أسفر الصبح ، وجعلت أزيّن لها الرحيل وركوب الإبل واجتياز القرى والنظر إلى هذه الحقول المنبثة بيننا وبين البحر ، والنظر إلى هذا الخط من الماء الذي يفصل بيننا وبين بلادنا في الغرب ، ونظر إليه مقبلات عليه بعد أن نظرنا إليه مدبرات عنه ، ثم نعبر هذا البحر ونمشي على هذا السهل الجميل النضر الذي تلتقي فيه أرض الصحراء الحجدبة وأرض الريف المخصبة ؛ ثم نصعد تصعيداً هيناً كأنما نرقى في الدرج إلى هذه الهضبة الجميلة التي تقوم من ورائها قريتنا وادعةً هادئة كأنها تحتوى بها من كل طارق يأتيها من الشرق . أنا أزيّن لها هذا كله بلساني ، وأتكلف لها مظهر المرتاحة له المغتبطة به المقبلة عليه في سرور ولذة وشوق ، والله يعلم إن كنتُ لحزونة أشد الحزن مبهتسة أشد الابتئاس ، تنازعني نفسي إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التي ترامت أطرافها ، وامتدت على ضفة النيل هادئة وادعة ناعمة بما فيها

من حضارة وترف وثراء . والله يعلم أنى لم أكن مقبلة على هذا الغرب الذى سأدفع إليه إذا أسفر الصبح إلا برغمى وعلى أشد الكره منى . ما كنت أحفل بالحقول المنبثة ، ولا أجد شوقاً إلى هذا الخط من الماء ، ولا أجد كلفاً بهذا السهل الجميل النضر ، ولا أجد رغبة فى التصعيد الهين إلى هذه الهضبة المهيبه ، ولا أجد حينياً إلى هذه القرية الوادعة التى درجت فيها . إن هناك لحقولاً أخرى منبثة نحو الشرق تنحدر إلى المدينة فى دعة وفتور وتكسر جميل ، وإن هناك لخطاً عربضاً من الماء أشد روعة وجمالاً وإثارة للسحر فى القلوب من هذا الخط الضئيل النخيل يسمونه بحراً وما هو بالبحر ، وإنما هى قناة لا يصح أن تذكر مع النيل . وإن هناك لدوراً شاهقة واسعة مترفة تحيط بها الحدائق البديعة ، وتلد الإقامة فيها والحياة بين غرفاتها وحجراتها واللهو بين ما يحيط بها من الأشجار والأزهار . وإن هناك لفتاة جميلة وسيمة رقيقة هى التى أحزن إلى لقاءها وأتحرق على تجديد العهد بها . وماذا أصنع فى تلك القرية ، وأى حياة تهبأ لى فيها ! كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها رجوع إلى ذلك الطور الأبله الذى جعلت منه قليلاً قليلاً حتى امتزت من أمى وأختى وأخذت أشعر بأنى أحسن منهما فهماً للحياة ، وأصدق منهما حكماً على الأشياء ، وأشد منهما صبراً على الخطوب ، وأمهر منهما فى التخلص من الشدائد والكارثات . ألسأ أدنى منهما إلى الطفولة ، وأجلد منهما أن أكون غرّة غافلة ؟ ومع ذلك فإنى أنظر إليهما كما تنظر الأم إلى صبيتين ضعيفتين تحتاجان إلى الحماية والحب وإلى العطف والعون ! كذلك كنت متناقضة أشد التناقض ، مختلفة أشد الاختلاف ،

أزين لأختي ما أبغضه أشد البغض ، وأمنى نفسى بما ليس إليه من سبيل . وكثيراً ما خطر لى خاطر فلم أقف عنده لأنه كان يظهر لى سخيفاً مستحيلاً ؛ كثيراً ما خطر لى أن أتغفل من حولى إذا تقدّم الليل ، وأن أنسلّ من الدار وأن أهم على وجهى نحو الشرق منسابة بين المزارع والحقول والقرى كما تنساب الحية الدقيقة ، حتى أبلغ المدينة مع الصبح أو مع الضحى ، وإذا أنا حيث أحب أن أكون .

لم أقف عند هذا الخاطر الذى كان يمر بنفسى من حين إلى حين مرّاً سريعاً فينفذ منها كما ينفذ السهم من الهدف ؛ لأن الاستجابة له لم تكن ميسورة . وكيف الانسلال من الدار والأحراس عليها قيام ! وكيف الانسياب فى الريف ؟! وماذا تصنع فتاة وحيدة فى ضوء النهار فضلاً عن ظلمة الليل ! وكيف لى بترك هاتين البائستين تحملان وحدهما ثقل الأحداث والخطوب ؟ أقيمى أقيمى يا آمنة ! وانسى نفسك ولذتك وراحتك ، وانظرى إلى هذه الفتاة الجالسة أمامك ، إن ذهولها يميز القلب ، وإن شحوب وجهها ليذيب النفس ، وإن هذه الدموع التى أخذت تنحدر من عينها فى سكون وصمت لخليقة أن تصرفك عن كل تفكير إلا فيها ، وعن كل عناية إلا بها . ألقى ألقى يا آمنة فى تزيين الرحيل ، وفى التحدث بما سنجد فى القرية من أمن ، وبما سنستقبل فيها من هدوء واستمتاع بالحياة الراضية ، لا نخدم أحداً وقد يخدمنا الناس .

ولكن أختي لا تسمع لى أو هى تسمع ولا تفهم عنى . هى مثلى لا تحب الرحيل ولا تحن إلى الغرب ، وإنما تحن إلى هذا الشرق الذى تركت قلبها فيه : هنالك فى ذلك البيت الجميل الذى تحيط به هذه الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل الريف ، ويعيش فيه ذلك الشاب المترف الذى يسمونه الباشمهندس .

في هذا البيت تركت أختي قلبها . وهي من أجل ذلك ذاهلة ذهولاً متصلاً ، وهي من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا أو تفهم عنا أو ترد علينا جواب ما نلقى عليها من سؤال . كنت أحسبها محزونة لما تورطت فيه من خطيئة ، وما أشك في أنها أحست هذا الحزن ، وما أشك في أن الندم قد عذبها تعذيباً ، لكنني بعد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبينت من أمرها ما تبينت استقبلت الصبح ونفسي تذوب أسى وحسرة على هذه الفتاة التي تنظر وراءها فترى حباً مضيعاً ، وتنظر أمامها فترى خوفاً مروعاً ، وتود لو استطاعت أن تعود أدراجها إلى حيث الحب وما يمكن أن يستتبع من نعيم أو بؤس ومن سعادة أو شقاء . ولكنها تدفع إلى أمام ، تدفع إلى حيث الخوف والروع ، وإلى حيث اليأس والقنوط ، تدفع فتندفع ، لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تظهر شيئاً ينم عن مقاومة أو ممانعة . يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس وتمحو حظها من الشخصية والإرادة محواً ، هذه القوة التي يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمان! → أنا أكذب على أختي فأزين لها ما أكره ، وهي لا تكذب على أحد ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب على نفسها ، وإنما أسلمت نفسها للقضاء واستيقنت أن خير ما في حياتها قد انقضى منذ أمرت أمنا بترك المدينة ، فلم نخالف من أمرها وإنما استجبنا طائعتين . ولكن ميم كانت تخاف ؟ وما هذا الروع الذي كانت آياته تبدو على وجهها بين حين وحين ، والذي كان يبعث في جسمها من وقت إلى وقت رعدة قوية توشك أن تدفعها إلى الوثوب ؟ إن في هذا الغرب الذي ندفع إليه خموداً وخمولاً وبأساً وقنوطاً ، وكل هذا يسوء ، وكل هذا يملأ القلب حزناً وأسى ! ولكنه لا يروع ، ولا يبعث في النفوس هذا الجزع ، ولا يثير في الأجسام هذه

الرعدة العنيفة الخيفة . كلا ! لم تكن مخطئة ولا غالية حين كان الروع يملأ نفسها ، فقد كانت تعلم ما لا أعلم ، وكانت تقدر ما لا أقدر ، وكانت تمر أمامها صور حزينة شاحبة ، ممتعة مذعورة باعثة للذعر ، صور فتيات ثلاث لم أسمع بهن قبل هذه الليلة ، ولكنهن كن حديث المدينة منذ عام وبعض عام ، خرجن من المدينة كما خرجنا نحن ، أو أخرجن منها كما أخرجنا نحن ، ثم لم يعدن إليها ولم تعد إليها أسرهن ، وإنما عادت إليها أحاديثهن ، كلها خوف وروع ، وكلها بأس وقنوط ، وكلها جزع وفرع ، وكلها يلوّنها الدم وقد يساقط منها قطرات .

ما أنت وهذه الحواطر الدامية أيها الفتاة الثعسة ؟ ! إنما ترحلين بين أمك وأختك ونخالك إلى قريتك التي ولدت فيها لتعيشي بين قوم أحبوك وأحبيتهم ، وما زالوا يحبوك ولقد كنت تحبينهم منذ حين ، أتذكرين ! لقد كنت أكثرنا حديثاً عنهم وحيناً إليهم في المدينة كلما التقينا . ما بالك تخافين منهم وتشفقين من لقاءهم وإنك لواجدة عندهم من الحماية والأمن ما لا سبيل إليه في حياة الغربة والعمل في هذه البيوت التي لا يعطفها علينا حب ولا ود ؟ ! ولكنها لا تسمع لي أو لا تفهم عني ، وإنما هي مشغولة بما تركت من حب وبما تستقبل من روع ، تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذي أحبته ، وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات خائفات مخيفات مروعة مثيرة للروع . أما هذه التي تسمى أمينة فقد احتز رأسها احتزازاً . وأما هذه التي تسمى مارنا فقد شق صدرها شقاً . وأما هذه التي تسمى ملزمة فقد يقال إنها دفنت حية ولقيت حتفها محتقة في التراب . ما الذي ينتظرن من ألوان الموت هذه ؟ ! وأنا أرد عنها هذه الحواطر جاهدة ، أتلف حيناً حتى أقبلها وأداعبها ، ثم أشدد

في التلطف بها حتى أستعطفها بما أسفح من دموع ، ثم أعنف وأغلو في العنف وأنذرها بأني سأقص خوفها كله على أمنا وخالنا ، وسأستوثق لها منهما أو سأمتنع عليهما فلا أتبعهما ولا أدعها تتبعهما ، وسأستجير لنفسى ولها منهما بهذا الرجل الكريم الذى نحن ضيف عنده . ولكنها إذا سمعت منى ذلك ثابت إلى نفسها وردتني إلى الأناة والمهل ، وأظهرت التجلد والصبر ، وتكلفت ثقة لا تلبث أن تضطرب واطمثناء لا يلبث أن يزول .

يا لك من ليل طويل بغيض ، لم نعرف فيه راحة ولا أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كنا فيه نهب الندم المضى على ما فات ، والخوف المهلك مما هو آت ، والضيق الشديد بما نحن فيه ، والليل يطول ويطول ، كأنه يحمل أثقالاً لا قبل له بها ولا قدرة له على المسير معها ، فهو يزحف زحفاً بطيئاً أشد البطء ، والحلم يغشى نفوسنا تغشية ، وهذه الخواطر المنكرة تدور في رؤوسنا دوراناً متصلاً يكاد يفنيها . ولكن ما هذا الصوت الذى يشق هذا السكون الذى نحن فيه شقاً ويردنا إلى أنفسنا فزعتين جزعتين كأنه أخرجنا من نوم عميق ؟ إنه صياح الديك يودع الليل ويؤذن بمقدم الصبح . بماذا تصيح أيها الديك ؟ وبماذا تريد أن تنبئنا أو تنبأ لنا ؟ قالت أنخى : أتذكرين صاحبة الودع ؟ إنها رأيتني بين رجلين أحدهما آذاني وسيجبنى والآخر أحبنى وسيؤذنى ، ألم تفهمى عنها شيئاً ؟ قلت : وماذا تريدن أن أفهم عن هذه العجوز الحمقاء ومن هذا السخف الذى تردده في كل مكان وتقدمه إلى الناس جميعاً ؟ كل رجل عندها بين امرأتين أو بين نساء ، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال . قالت

أخيتي : فإني أرى هذين الرجلين رأى العين وأعرفهما كما أعرفك ، وستريتهما
 وستعرفينهما ، وستبغضين أحدهما أشد البغض وستحبين الآخر حباً كثيراً !
 وهذا الهواء يضطرب ويضطرب معه صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة ،
 والناس يستيقظون ويخرجون من منازلهم أفراداً بين ذاهب إلى المسجد
 وذاهب إلى الحقل ، ونحن نستقبل هذا الصبح الشاحب بنفوس شاحبة
 وقلوب واجفة ووجوه حائلة . لو استطعنا لأحجمنا ، ولكننا ندعى إلى
 الإقدام ولا نستطيع امتناعاً على هذا الدعاء .

هذان الجملان قد هيئا للرحيل . وهذا خالنا قد قام عندهما كأنه
 الشيطان ، وهذه أمانا تدعونا إلى الخروج في رفق . وها نحن أولاء نودع
 من عرفنا من أهل الدار . ثم تمضي ساعة وساعة وإذا ضوء الضحى
 يغمرنا في هذا السهل الرينى الجميل الذى تمتد فيه عن يمين وشمال هذه
 الحقول النضرة ترتاح إليها النفوس والأبصار . ولكن هناك نفوساً لا ترتاح
 وإنما هي مضطربة دائماً ، وأبصاراً لا تستقر وإنما هي زائغة دائماً... إلى أين
 يمضي بنا هذان الجملان !

إنما يمضيان بنا إلى حيث الأمن والدعة ، وإلى حيث العز والمتعة ،
 وإلى حيث نقضى حياتنا كما تعود أمثالنا من فتيات القرية أن يقضين
 حياتهن هادئات ناعمات ، حتى إذا تقدمت بهن السن وأدركهن ميعه
 الشباب ونضرته سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أو من شباب القرى

المجاورة ، فأصبحت كل واحدة منهن سيدة في البيت أو سيدة في الخيام ،
 واستقبلت حياة فيها الجهد والعمل والكد ، وفيها الأبناء البنات وما يستتبعون
 من بهجة وقررة عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . انظري يا ابنتي
 الكبيرة إلى كل هذا النور الذي يصبه الضحى علينا صبباً والذي يغمرنا ،
 والذي نمضي فيه كأنما نخوض بلجة البحر . انظري إلى هذا النور الذي يغمرنا
 ويغمر السهل من حولنا ؛ وانظري إلى هذه الحقول تنبسط عن يمين
 وشمال لا تكاد تنتهي ؛ وانظري إلى هؤلاء الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفتيان
 والفتيات وقد ملأهم النشاط ، وبعث فيهم الجهد حياة لا حد لها ، فهم
 يذهبون ويحيثون وهم يعملون لا يعرفون كلالاً ولا سأمًا ، وأصواتهم ترتفع
 لا بالشكوى ولا بالأنين وإنما ترتفع بهذا الغناء الساذج الحلو الذي يبعث
 في هذا الجو نغمات ساذجة حلوة ، والذي يصور الأمل في غير إسراف ،
 والرضا في غير استكاثرة ، والاطمئنان في غير حزن ، وحب العمل على
 كل حال ، والثقة بالله على كل حال أيضاً .

انظري يا ابنتي واسمعي ، ثم سلى نفسك : أتجدين فيما ترين أو فيما
 تسمعين ما يثير خوفاً أو يبعث روعاً أو يدفع إلى يأس ؟ كل شيء آمن
 وكل شيء يدعو إلى الأمن ، كل شيء هادئ وكل شيء يدعو إلى
 الهدوء . إن ظلمة الليل لمنكرة وإنما لتحب الخوف وتثيره ، وإنما لتبعث
 الأشباح من مكانها ، وإنما لتغري القلق بالنفوس وتسلط الهم على
 القلوب . . . لقد كنت يا ابنتي تثيرين في نفسي مثل ما كان يشور في
 نفسك من الخوف حين كنت تتحدثين إلى وظلمة الليل تغمرنا من كل
 مكان . فأما الآن وقد انجلت هذه الظلمة وأصبحت لا أمد عيني إلا

رأيت ، ولا أمد أذنى إلا سمعت ، فإني لأضحك منك ومن تلك الهواجس التي كانت تروعك ، ومن تلك الأشباح الحمراء التي كانت تترامى لك وتمثل أمامك . وإني لأضحك من نفسي ومن انقيادها لك بعض الشيء وتأثرها بك إلى حد ما . انظري واجتهدي في أن تستحضري الأشباح الحمراء ، إنها لا تستطيع أن تظهر ولا تجرؤ على أن تترامى فضلاً عن أن تمثل أمامك أو أن تسايرك . إن الأشباح لا تحب النور ولا تستطيع أن تظهر في وضوح النهار ، إنما الأشباح والخوف والفرع واليأس بنات الليل ، تطمئن إليه ويطمئن إليها ، تستظل به ويسقط عليها ظله المظلم الساكن الخفيف ، فإذا ابتسم الصبح وأشرق الضحى واستيقظت الحياة ذابت كل هذه المروعات ، وانجابت مع الظلام ، فلم يبق لها أثر في نفس ولا سلطان على قلب . انظري إلى هذا الضحى المشرق ، وأفيضى بعض إشراقه على نفسك . انظري إلى هذه الحياة التي يملؤها النشاط فأفيضى منها على قلبك . ألسنت تحسين الحاجة إلى أن ترفعي صوتك بالغناء ، كما يتغنى هؤلاء الشباب عن يمين وشمال ؟ ! ثم انظري إلى أمنا وخالنا ، إن جملهما ليسعى بهما مرحاً شديد النشاط ، وإنهما ليتحدثان في هدوء وأمن واستبشار وشيء من الحنان كأنما يذكران أيام صباهما وشبابهما ، وكأنما يودان لو رجعت بهما الأيام إلى مثل هذه السن التي نحن فيها . أترين عليهما مظهراً من مظاهر الريبة أو آية من آيات المكر ، أو دليلاً من دلائل الكيد ؟ كلا ، إنهما ليمتزجان بما حولهما فإذا هما حياة وأمن وأمل ، فلنكن مثلهما حياة وأمنًا وأملًا .

ويسلك حديثي هذا سبيله إلى قلب أختي كما يسلك النور والحياة سبيلهما إلى نفسها ، وإذا هي تطمئن بعض الشيء لا تبسم للحياة ولكنها

لا تسرف في العبوس ، إنما هي كآبة ملحة تغشى نفسها ولكنها كآبة هادئة لا تثير روعاً ولا جزعاً ولا بأساً . والطريق تمضي بنا مستقيمة جميلة يجيبها إلى النفوس هذا النور القوي الذي يزداد قوة وصراحة وإلحاحاً كلما تقدم النهار ، وهذه الحقول الخصبة يملؤها هذا النشاط الخصب وهذا الغناء الحلو يرتفع في الجو ، ويمتزج بما يملؤه من الضياء والهواء ، ونحن لا نجوز قرية إلا دفعنا إلى قرية أخرى ، حتى إذا تقدم النهار وكدنا نبلغ العصر ، وكنا قد انتهينا إلى بعض القرى قال خالنا : لقد آن لنا أن نستريح ساعات ، ولست أرى بأساً بأن نستأنف السفر إذا أقبل الليل ، فقد أشرفنا على بلادنا وما أرى أن الليل سينتصف حتى نكون قد بلغنا البحر عند بني فلان فإذا أسفر الصبح عبرنا إلى أرضنا ولا يرتفع الضحى حتى نكون قد انتهينا إلى بني وركان .

ثم يعرج بنا على القرية وينبع بنا عند دار العمدة ونزل من هذه الدار أحسن منزل ، وإني لشديدة الرغبة في أن أنفق الليل حيث أنا ، وإن أئخى لتشاركني في هذه الرغبة ، ولكن خالنا قد أزمع المسير مع الليل ولم تراجعه أمنا ولم تمتنع عليه ، ولم يستطع مضيفنا أن يشنيه عما اعترم؟ وبينما كنا نحن نأخذ حظنا من الراحة بعد أن أصبنا مما قدم إلينا من طعام كان خالنا قد خرج من القرية يريد فيما زعم أن يلم ببعض من كان يعرف في قرية مجاورة ، فيغيب عنا ساعة وساعة وساعة ، ويقبل الليل ويبسط ظلمته بسطاً ، ونكاد نستئس من استئناف السفر ونكاد نطمئن إلى البقاء حتى يسفر الصبح .

ولكن هذا خالنا قد أقبل ، وهذا صوته الغليظ القاطع يرتفع بالنداء

إلى الرحيل . وها نحن أولاء نستجيب لندائه ، وهؤلاء أهل الدار ينكرون عليه هذا السفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس ، ولكن خالنا إذا عزم أمضى . وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان الحملان قد دفعا بنا دفعاً إلى الطريق العامة وقد أسدل الليل أستاره من حولنا إسدالاً ، وقد نامت الحياة وخلت الحقول وسكن كل شيء وانقطعت الأصوات ، إلا هذه التي تأتينا من بعيد بين حين وحين فتنهنا ، فإذا هي أصوات الكلاب تنبح في القرى البعيدة ، وإلا هذه الأصوات اليسيرة الخفيفة المختلفة المتصلة التي تحيط بنا وتمتج بسكون الليل امتزاجاً فتحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة المروعة معاً ، وهي أصوات الحشرات والضفادع المنبثة في الحقول وعلى شواطئ الأقبية .

وربما وصل إلينا من حين إلى حين صوت بعيد يأتينا من يمين أو من شمال فننكره ونرتاع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء البوم ، وربما ارتفع صوت خالنا ببعض غناء البدو فرجع ترجعاً جميلاً مخيفاً معاً ، ولكنه لا يتصل إلا قليلاً ثم ينقطع . ويمضي خالنا في حديثه مع أمنا ، أو يفرق خالنا وتفرق أمنا في الصمت العميق ، وأنا وأختي نسمع لهذا كله ونتحدث في شيء من الهمس الخائف الوجل كأنما نفر من شيء نخافه أو نقدم على شيء نخشاه . ومن يدرى ، لعلنا كنا ننتظر ظهور الأشباح الحمراء ، ونشفق من أن تراءى لنا وتمثل أمامنا وتكرهنا على أن نتحدث إليها أو نتحدث عنها ؛ والحملان يسعيان بنا سعياً فيه إسرار ولكنه إسرار لا يكاد يحس ، وكأنهما مثلنا يفران من بعض ما يكرهان فهما يجدان في السعي ! وسكون الليل ينقل شيئاً فشيئاً ، وظلمة الليل تزداد كثافة

من حين إلى حين ، ونفوسنا تريد أن تهيم في هذا السكون وتختلط بهذه الظلمة وتود لو احتواها النوم ، ولكن أننى لها أن تهيم في سكون الليل وهي مضطربة وأننى لها أن تختلط بظلمة الليل وفي جنباتها هذه الأنوار الضيئلة الشاحبة أنوار التفكير في غد والتذكر لأمس ، والرؤية فيما نحن فيه ؟ ! وأننى لها أن تنام وهذه بنات الليل قد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً وتدنو منا قليلاً قليلاً ، وتثير فينا هذا الإشفاق البغيض الذى لا يستطيع أن يكون أمناً ولا يبلغ أن يكون خوفاً صريحاً ، وإنما هو قلق خفى ماكر يفسد من حوله كل شيء ؟ ! ونحن نريد أن نقاوم بنات الليل هذه فنغمض أبصارنا حتى لا نراها ونسد آذاننا حتى لا نحس قربها منا ! والجمالان يسعيان في جد ونشاط لا يكاد يأخذ منهما الفتور . ثم يرتفع صوت خالنا غليظاً مخيفاً ، كله شر وكله نكر وكله نذير : هنا يجب أن ننزل . وما هي إلا أن يناخ الجمالان ولم تستطع واحدة منا أن تقول حرفاً أو أن تنطق بكلمة أو أن تفكر في شيء ، وإنما هو ذهول غريب كثيف قد أطبق علينا وملاً نفوسنا كما أطبق علينا وملاّت نفوسنا ظلمة الليل . وهذا خالنا قائم كالشيطان ، وهو يأمرنا في غلظة وعنف أن ننزل فلن يمضى الجمالان أمامها قيد أصبع .

وها نحن أولاء ننزل مضطربات ، ونسعى متعثرات ، وهذه أمنا تريد أن تسأل فيم إناخة الجمالين ، وفيم النزول في غير منزل ، وها أنا هذه أريد أن أقول شيئاً ولكنى لا أكاد أدير لساني في فمى ، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول ؛ إنما هي صبيحة منكرة مروعة تنبعث في الجو ، وجسم ثقيل مهالك يسقط على الأرض ، وإذا أختى قد صرعت وإذا

خالنا هو الذي صرعها لأنه أعمد خنجره في صدرها . ونحن عاكفتان على هذا الجسم الصريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم في قوة كما يتفجر الماء من ينبوع . ونحن عاكفتان في ذهول وغفلة وبله ، لم نفهم شيئاً ولم نقدر شيئاً ولم ننتظر شيئاً ، وإنما أخذنا على غرة أخذاً واختطفت هنادى من بيننا اختطافاً ، وجسمها يضطرب ويتخبط ودمها ينفجر ولسانها يضطرب ببعض الحديث في فمها ، ثم يهدأ الجسم المضطرب ، ويسكن اللسان المتحرك ، ويخف تفجر الدم ، ويمتلئ الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت . ونحن فيما نحن فيه من ذهول وغفلة وبله ، وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذه الدهول كما أخذنا . . .

وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز يبلغني من بعيد ، وهذا صوتك يدنو إلى قليلا قليلا ، وهذا غناؤك ينتشر في الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الهول دون أن نراه . وما أنت ذا تبعث صيحاتك يتلو بعضها بعضاً ، كأنما هي سهام من نور قد تلاحقت مسرعة في هذه الظلمة فطردت عن نفسى ذهوبها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله ، وجلت لها الجريمة منكرة بشعة ، والمجرم آثماً بغيضاً ، والضحية صريعة مضرجة بالدماء . . .

إن صوتك لم يوقظني وحدي وإنما أيقظ أمنا فها هي هذه تفيق وها هي هذه تسأل أخاها : أو فعلتها يا ناصر ؟ ! وها هي هذه تغرق في بكائها السخيف بكاء الأنثى المستسلمة التي لا تملك حولاً ولا طولاً إلا سفح الدموع . ويليك أيها البائسة ! إنك لتستطيعين أن تسفحي دموعك إلى آخر الدهر فلن تغسلي قطرة من هذا الدم الذكي . ويليك أيها الأم

الآئمة ! إنك لن تستطيعي أن تردى نفسك إلى البراءة والأمن .
 نعم ! إن صوتك أيها الطائر العزيز قد أيقظني وأيقظ هذه الأم المجرمة
 التي سفكت دم ابنها بيد أخيها ، وأيقظ هذا المجرم فنبهه إلى أن جريمته
 يجب أن تخفى وإلى أن آثار إثمه يجب أن تزول . ولكنه لم يوقظ هنادى
 وما كان ينبغي له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقوّ ومهما يلح فلن
 يستطيع أن ينفذ من أستار الموت . إنك لترسل صيحاتك متصلة متلاحقة
 وإني لأنشط مثلك للصياح ، وإن صوتينا ليملآن الفضاء العريض
 من حولنا ، ولكنهما لا يصرقان هذه المرأة عن بكائها السخيف ، ولكنهما
 لا يصرقان هذا الرجل عما هو مقبل عليه من إخفاء هذا الجسم في هذه الحفرة
 التي لم يفارقنا آخر النهار إلا لبيثها .

لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله ، واستنفدت هنادى حظها
 من الحياة ، وماتت لأن شاباً آثماً أغواها ولأنها لم تحسن أن تدفع
 عن نفسها غوايته .

إن صوتك لينبعث في الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث ، وإن صوتي
 لينبعث في الفضاء داعياً وليس من يجيب ، وإن هذا الرجل المجرم ليفرغ
 من إخفاء جريمته ومحو آثارها ثم يلتفت إلى هذه المرأة وإلى ويقول في
 صوت متهدج فيه الرعب وفيه الخوف وفيه التنذير : هلم فقد آن أن نرتحل .
 فإذا أبطأنا عليه ردد هذه الكلمات في صوت أشد ترويعاً وأكثر امتلاء
 بالتنذير . ثم يمثل أمامنا ويقول :

تعلمان والله أن هنادى ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا
 الوباء الذي ألمَّ بها منذ أسابيع !

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العزيز قليلاً قليلاً ، وانقطع عني صوت خالي ، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسلت من الأشياء كلها ، وإنى لأراني أمرض في بيت خشن حقير .

١١

متى بلغت هذا البيت ؟ وكيف بلغته ؟ وأي طريق سلكت إليه ؟
 وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه ؟ وكم من يوم أو من أسبوع
 احتملت أثقال هذا المرض الذي أخذت غمراته تنجلي عني لحظات
 في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتراكم ويركب بعضها بعضاً وتأخذني
 من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل من حولي : كل شيء وكل إنسان ،
 ولا أحس ولا أرى حين أغرق فيها وحين أخرج منها إلا هذه الصورة
 المنكرة البشعة التي لا أذكرها الآن ولم أذكرها قط إلا جرت في جسمي
 رعدة عنيفة مؤلمة وأخذ نفسي اضطراب لا حد له ؟

أسئلة ألقيتها على نفسي ألف مرة ومرة ، وسألقتها على نفسي ألف
 مرة ومرة ، فلم أظفر ولن أظفر لها بجواب . وإنما أذكر صوتك أيها الطائر
 العزيز وهو ينحف في أذني ، ويفني قليلاً قليلاً كأنه صوت المدوع يبلغ
 المسافر والقطار يبعد به عنه شيئاً فشيئاً . إنما أذكر ذلك الصوت البشع المجرم
 صوت خالنا الآثم وهو يتهدج ويبعد عني شيئاً فشيئاً في ثقل وبغض واشمئزاز .
 إنما أرى قطعة من الليل تسعى إلى سعياً هادئاً أول الأمر ولكنها

تسرع شيئاً فشيئاً ، وهذه الظلمات تتكاثف من حولي كأنها الأمواج العظام ، وهذه الأصوات تنقطع وتبعد ، وهأنا هذه يغمرنى الموج وأدخل في الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء ، يا له من نوم عميق طويل ! إن الأحلام قد ألحّت عليه ، فهى تروّعنى فيه ترويعاً متصلاً ليس إلى انقطاعه من سبيل .

أكنت نائمة ؟ أكنت مستيقظة ؟ أكنت مريضة ؟ أكنت صحيحة ؟ أكنت عاقلة ؟ أكنت ذاهلة ؟ لا أدرى ؛ إنما أعلم أنى كنت شاعرة شعوراً غامضاً ولكنه قوى ملح كأنى قد أقمت إلى ينبوع يتفجر أمامى من الأرض فى مكان رحب ، بعيد الآفاق لا يقوم فيه شيء ، ولا تقع العين فيه إلا على هذا ينبوع وعلى ظل مقيم عنده لا يريم ، وعلى ظلال أخرى نجىء كأنما أقبلت تزور هذا الظل ، فهى تلم به حيناً وكأنما تناجيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها ، وكأنى أسمع نجوى هذه الظلال ولكنى لا أحقق ما أسمع ، وكأنى أفهم نجوى هذه الظلال ولكنى لا أتبين ما أفهم . . . وأنا جامدة هاملة لا أحس ولا أرى إلا هذا ينبوع الذى يتفجر فى غير انقطاع ، وهذا الظل الذى لا يتحول عنه وهذه الظلال التى تغشاه بين حين وحين . يا له من ينبوع كربه أود لو أحول عيني عنه ، ولكن حمرة تجتذب عيني إليه اجتذاباً ! إنه لينبوع غزير ، ولكنه لا يتفجر منه الماء ، وإنما تتفجر منه الدماء . يا له من ظل حزين كئيب شاحب مسرف فى الشحوب أحاول أن أغمض عيني وأن أغلق نفسى فلا أحس له محضراً ، ولكن شحوبه يستهوى نفسى ولكن حزنه يمزق قلبي ولكن انحناءه على هذا ينبوع يملأنى لوعة وروعة

وابتناساً ! يا لها من ظلال تذهب وتجيء هادئة لا تكاد تشعر ولكن في حركاتها ما يملأ النفس جزعاً وهلعاً ! ما لي لا أثبت عيني في هذا الظل المقيم ، وما لي لا أثبت عيني في هذه الظلال المضطربة التي تذهب وتجيء ؟ أنا نائمة أنا أم مستيقظة ؟ أعاقلة أنا أم ذاهلة ؟ أليست أتبين في هذا الظل المقيم ملامح أختي فما لها إذن لا تكلمني . . . وما لها إذن لا تدعوني . . . وما لها إذن لا تتاجيني ؟ لقد عرفتها محبة لي واثقة بي مطمئنة إلى ، فما لها لا تظهر لي شيئاً من هذا الحب ، ولا تبدى لي شيئاً من هذه الثقة ، ولا تبين لي عن شيء من هذا الاطمئنان ؟ إنما هي مكبة على هذا الينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الجميلة في المرأة . عمّ تبحث في هذا الينبوع ؟ أتراها تلمس صورتها في هذا الدم المتدفق ؟ وما لها لا تكلمني ، أليست تراني ؟ ما لها لا تجيبني ، أليست تسمعي ؟ ما لها لا ترق لي ولا تعطف علي ؟ أليست تسمع هذا النداء الذي ينبعث من فمي باسمها في صيحات قوية عنيفة متلاحقة ؟ ! إني لأسمع هذه الصيحات ولكني لا أرى من أختي أنها تسمعها ، وكأن هذه الصيحات تخيفها وترزعجها ! فهذا ظلها يستخفي وتستخفي معه الظلال الأخرى ، ويستخفي معها الينبوع الأحمر ، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إلى ويدنون مني ويستجيبون لي ، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أتبينهم ، ثم أخافهم ، ثم أبغضهم ، ثم أتق محضهم بالصمت والهدوء . . . إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحي فأقبلوا يرفقون بي ويسألونني عما أجد .

إنهم أهل الدار ، وما أشد بغضي لأهل الدار . إني لأرى بينهم أي وإني لأكره أن أرى أي . كلا ! لأكف عن هذا الصياح لعل

أهل الدار أن ينصرفوا عني فيجنبوني محضهم الكريه؛ إني لأخذ نفسي بالصمت وأكره نفسي على الهدوء ، وما هي إلا لحظات صامتة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار . وهذا ينبوع الأحمر يتفجر من الأرض قوياً غزيراً ، وهذا ظل أختي ماكتأ لا يريم ، وهذه الظلال تذهب من حوله وتجع . إن لي بهذه الظلال لعهداً ، لقد رأيتها ولقد سمعت عنها حديثاً ، لقد حدثتني عنها أختي في تلك الليلة التي قضيناها مروعتين حين أقبل خالنا يدعونا إلى سفره الآثم .

نعم إن لي بهذه الظلال الحمراء ظلال مرثا وأمينة وملزمة تلك التي كانت تترامى لنا فتملاً قلب أختي فرقاً وهدماً وروعاً . . . إن لي بهذه الظلال لعهداً وإني لأعرفها وإني لأفهم الآن إلحاحها بالزيارة على هذا الظل المقيم . لقد أقبلت تحييه وتواسيه وتبته ما وجدت من ألم وحزن ، وتسمع منه ما وجد من شقاء وبؤس . إن نجوى الظلال لغريبة ... ليتني استطعت أن أفهمها ، ليتني استطعت أن أستحيل ظلاً فأفهم حديث الظلال ! ما بال أختي لا تناجيني ، أتراها لا تحس محضرى ، أم تراها لا تعرف كيف تتحدث إلى أو تفهم عني ؟ أنتغير لغة الناس إذا ماتوا ؟ ! لقد حدثونا أن للموتى حديثاً يلقونه إلى الأحياء فيفهمه عنهم الأحياء . . .

إني لأعرف هذه الظلال . لقد كنت في ضلال إذن حين كنت أزعج لأختي في بعض الطريق أن الأشباح بنات الليل ، وأنها تكره ضوء النهار ولا تستطيع أن تظهر فيه ؛ والظلال ملحة في المثلول أمامي لا يصرفها عني مطلع النهار ولا يصرفها عني مقدم الليل . إن الظلال إذن لا تهاب نوراً ولا تألف ظلمة ، ولعلها لا تعرف نوراً ولا ظلمة وإنما نحن يغشينا

ضوء النهار فلا نرى الظلال التي تحيط بنا وتضطرب من حولنا وترى كل ما نأتى وتسمع كل ما نقول . ولعلها ترثى لنا ، ولعلها تسخر منا ، ولعلها لا تفهم عنا شيئاً كما أننا لا نفهم عنها شيئاً . يا للهول إن تدفق الينبوع ليشهد ، وإن الدم ليتشرب من حوله انتشاراً ، وإن الحمرة لتصبغ كل شيء من حولى ، وإن هذه الظلال لتدنو منى كأنها قد عرفتنى وكأنها تريد أن تقبلنى ! يا للهول ، إن الروع ليملاً قلبى ، وإن الصباح ليتفجر من فى فيملاً الجو من حولى كما ينفجر الدم من الينبوع فيصبغ الأرض بحمرته ، وإن أهل الدار ليقبلون على ، منهم الجزع ، ومنهم المطمئن ، وهم يرفقون بى ويعطفون على . . !

وهذه أمى ، يا للهول ! ما أسمح هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة وما أشد بغضى لهذا المحضراً ! إنها لتدنو منى وإن الدم ليجمد فى عروقى لمقدمها . إنها لتضع على رأسى خرقه مبللة وإنى لأجد لبرد الماء شيئاً من الراحة ، ولكن لينصرف عنى هذا الوجه فإنى أكره أن أراه ، لتردّ عنى هذه المرأة فإنى لأخشى أن تقتلنى . . . وكيف أخلص منها وكيف آمن محضرها إلا إذا آويت إلى الصمت ولجأت إلى الهدوء ؟ إنه لعذاب أليم هذه الحياة بين الينبوع الأحمر والظلال المطيفة به إن آثرت الهدوء ، وبين أهل الدار وهذه المرأة البغيضة إن آثرت الصباح . أليس لى سبيل إلى الراحة من هذا العناء ؟ ما أكثر ما طلبت وألححت فى طلبها ، وما أكثر ما فرت منى وامتنعت على ، وما أكثر ما خيل إلى أنى أجرى فى لآثر شيء أتمناه أشد التمنى وأحرص عليه أعظم الحرص وأجدّ فى طلبه كل الجهد ، حتى إذا بلغته أو كدت أبلغه كانت منه وثبة فإذا المسافة بينى

وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبينى بعيد ، وإذا أنا معذبة أشد العذاب
بالاضطراب الملح المضمنى بين وجوه أهل الدار التى أكرهها ، وهذه الظلال
التى يؤذنيني منظرها ويثير في نفسى ألماً لا آخر له . . .

ولكننى أستقبل النهار ذات يوم هادئة النفس مستريحة الجسم ،
قد ألح الضعف على فما أكاد أتحرك . على أنى أجد فى هذا الضعف
نفسه دعة وأمناً فأستعذبه وأستلذه وأستسلم له استسلاماً ، وأجد فى نفسى
دهشاً لذيدياً حلواً لأنى أفتقد شيئاً كنت أخاف أن أجده ، أفتقده افتقاد
السعيد بالنجاة من شر يخشاه . فقد يخيل إلى أن قد بعد العهد بينى
وبين الظلال والينبوع ووجوه أهل الدار ، وأنى قد قضيت وقتاً غير
قصير لم أر حمرة الينبوع ولم أشهد اضطراب الظلال ولم يرتفع صوتى
بالصباح ولم يسرع إلى أهل الدار . ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى
أجتهد ما استطعت فى أن أذود هذه الخواطر عن نفسى مخافة أن يطول
تفكيرى فيها فيكون ذلك استحضاراً لما أتمثله من الهول ، ودعاءً لما أجد
من السعادة فى الإفلات منه ، ورفعاً للستار عن الينبوع الذى منه يتفجر الدم
والذى تطيف به الظلال . فأنا أذود هذه الخواطر عن نفسى ، وأستسلم
لهذا الضعف الذى أجده ، وأود لو بقيت كما أنا هاملةً خامدة لا أقدر
على شىء حتى على التفكير ، ولكن هذه هى أمر تدنومنى وعلى وجهها الكئيب
شىء من آيات الرضا ، وهى تقول لى فى هذا الصوت الذى يخيل إلى
أنى لم أسمعته منذ زمن بعيد : لقد نمت الليلة كلها يا آمنة ، فأنت بارئة ،
وما أرى إلا أنك ستسرعين نحو الشفاء . ليتها لم تقبل علىّ ، وليتها لم
تدن منى ، وليتها لم تتحدث إلىّ ! فقد اقشعر لقربها بدانى كله ،
واضطربت نفسى كلها ، وأخذت غشاوة غريبة تلقى على عيني ، وأخذت

الأشياء تضطرب من حولي اضطراباً وآذاني هذا كله أشد الإيذاء حتى كدت أصبح لولا أني حبست صيحتي في حلقى ولكن لم أستطع أن أمسك يديّ وأن أمنعهما عن أن ترتفعا إلى عيني لتردا عنهما منظر هذه الأشياء الراقصة ، وظنت الأم البائسة أني أتقيها فولت باكية ، ووجدت في انصرافها عنى سروراً وراحة ورضاً .

ولا بد مما ليس منه بد ، فلم يكن سبيل إلى أن تمتنع أمى عن عيادتي والعناية بي ، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءها وأخلص من محضرها ، ولم يكن بد من أن تنظر إلىّ وأنظر إليها ومن أن تتحدث إلىّ وأسمع منها وأردّ عليها رجوع الحديث ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفسى من الموجودة والغيبظ ما كان يردنى أحياناً إلى بعض ما كنت فيه ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفس هذه المرأة البائسة آلاماً إلى آلام وشقاءً إلى شقاء فترسل عبراتها حيناً وتهدهاتها حيناً آخر ، وربما أثار في نفسها غضباً تجهد في حبسه أن ينفجر . وأنا أدنو إلى البرء وأستزيد من القوة وأسترد النشاط قليلاً قليلاً ، وآتى بعض الحركات اليسيرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع الانتقال ، ثم تثوب الحياة إلىّ في قوة كأنما كان بينها وبينى سد ، فلما أزيل أخذت تعمرنى من كل وجه ، وإذا أنا أنهض وأسعى ، وإذا أنا أسترد حظاً من القوة غير قليل وأجد رغبة في كل شىء إلا في الحديث . وأمى تدور حولي وتتلف لى وتغلو في العناية بي ، وتود لو تجد إلى نفسى سبيلاً ، وتنفق جهوداً مثيرة للثناء تريد بها أن تصل أسباب الحديث بينها وبينى ، ولكنها لا تصل مما تريد إلى شىء ، وقد ألتى بين نفسها ونفسى سور صفيق فهما لا تلتقيان . ومع ذلك فإن خاطرأ من الخواطر

كان يتردد في نفسى تردداً لا يكاد ينقطع وكنت أدافعه دفاعاً متصلاً
 لأننى كنت أجد في اضطراب نفسى به ألماً فيه الخوف والرعب وفيه البغض
 والحقد . فقد كنت أسأل نفسى وأريد أن أسأل أمى أو أن أسأل بعض
 من حولى عن خالنا ذلك الشيطان الآثم المرید: أين هو وأين استقرت به
 الدار؟ فما أذكر أن صورته البغيضة تمثلت لى فيما كان يتمثل لى من
 الصور أثناء العلة ، وما أذكر أنى سمعت له ذكراً أو عرفت من أمره
 خبراً منذ أخذ البرء يسعى إلى ويدب في أعضائى، وما أذكر أن أحداً من
 أهل الدار قد أشار إليه أو ألم بالحديث عنه منذ أخذت أخالط أهل
 الدار وأشترك معهم في بعض شؤون الحياة . وكنت مع ذلك أريد أن
 أعرف من أمره بعض الشيء ، أو أكره أن أعرف من أمره بعض الشيء ،
 أحي هو أم ميت؟ أفلت يجرمته أم أخذه السلطان؟ أمقيم هو في القرية أم
 ذهب في الأرض يلتمس مأمته بعد الإثم وراء هضبة من هذه الهضاب؟
 ما أكثر ما ترددت في نفسى هذه الأسئلة وما أكثر ما جاش بها
 صدرى وما أكثر ما هم لسانى أن ينطق بها ، ولكنى كنت أحبسها في
 ضميرى حبساً خوفاً منها وبغضاً لهذا الرجل الأثيم . على أنى لم أستطع
 ذات صباح أن أملك من أمرى ما تعودت أن أملكه فسألت أمى وقد
 خلوت إليها ، سألتها وأنا أكاد ألوى وجهى عنها : أين هو؟ وما أسرع
 ما فهمت عنى ، وما أسرع ما أجابتنى وهى تشير إلى بالصمت : لقد
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . قالت ذلك وأنهمرت دموعها غزيرة
 سخينة ، ولكن بكاءها لم يدع بكائى وخزنها لم يثر حزنى فقد كان بين
 نفسها وبينى سور صفيق . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . . .

فلم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتصقاً مأمته وراء هضبة من هذه الهضاب ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الريف ويحملون إلى أهل الريف ثمرات الواحات . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكانت نفسه هادئة ، وكان ضميره مطمئناً ، وكان قد نسي إثمه نسياناً ، وكان قد انجلى عنه هذا الذهول الذي غشيه بعد أن سوي الأرض على ضحيته . ولم تتمثل له هذه الصور المروعة التي تتمثل لى ، ولم تنهكه هذه الحمى التي أنهكتنى ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يبيع ويشترى ، ويتحدث مع رفاقه إذا تحدثوا ، ويلهو مع رفاقه إذا هوا ، كأنه لم يأت شيئاً ولم يقترف إثماً ولم يسفك دم ابنة أخته بيده . . .

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ، وسيعود من الواحات فيمن يعود ، يحمل وجهه البغيض ونفسه المحرمة وضميره الآثم ، ويحمل مع هذا كله تجارة قد ترتضيه وقد ترتضى أهل هذه الدار . وسيلقونه مغتبطين بلقائه ، وسيلقاهم سعيداً بالعودة إليهم لا يحس ألماً ولا ندماً ، سيرتفع صياح الفرخ لمقدمه في هذه الدار ، سيرتفع صياح الفرخ في القرية كلها لمقدم العائدين معه من أهل القرية ، وسيقضى الناس هنا أياماً كلها أعياد يملؤها السرور والحبور . أما أنت أيها الأخت التعسة البائسة فلن يذكرك في هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التي لا تستطيع أن تذكرك إلا سراً بينها وبين نفسها ، وإلا هذه الفتاة التي لا تكاد تفكر فيك حتى يترأى لها الينبوع الأحمر والظلال المطيقة به في ذلك الفضاء العريض فتشفق من الجنون . . .

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود . . .

حرام على أن أراه ، وحرام على أن أشهد ما سيثير مقدمه من الفرح والابتهاج . إني لعاجزة عن لقائه ، وإني لخليقة إن لقيته أن أفضح من أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرّاً . أليست هنأدى قد ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بذلك الوباء ؟!

وأشرقت الشمس ذات يوم على أهل الدار وارتفع الضحى ، وافتقد أهل الدار أمانة فلم يجدوها ، ولو أنهم افتقدوها في القرية كلها لما وجدوها فقد كانت أمانة في بعض الطريق قد عبرت البحر مصوبةً نحو الشرق...

١٢

وإني لأراها في طريقها نحو الشرق فيمتليّ قلبي رحمة لها وإعجاباً بها وخوفاً عليها . وأى قلب لا يرحم فتاة غرة لم تكد تتجاوز سن الصبا وقد قذفت بها الأحداث في لجة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال ، وهي وحيدة ليس لها عون ، قد صفرت يدها من كل شيء ، وفرغ قلبها إلا من هذا الحزن اللاذع الذي يفعمه إفعاماً ، وعجزت نفسها حتى عن الأمل . فهي قد فرت من بيت أسرتها فراراً ، لا تريد شيئاً إلا أن تخلص من هذه البيئة التي لم تكن تستطيع فيها مقاماً ، وتفلت من هذا الشيطان المريد الذي كانت توشك أن تلقاه إن أقامت أياماً .

وأى قلب لا يعجب بهذه الفتاة الغرة التي لم تكد تتجاوز الصبا ، والتي فرت من أهلها فهي تسعى لا تلوى على شيء ، نحيلة هزيلة ، بائسة كئيبة لا تدرى أين ينتهي بها المسير ، ولا تعرف كيف يتاح لها

القوت ، بل لا تفكر في شيء من هذا ، وإنما تمضي أمامها مسرعة في
المضي يدفعها عزم لا يعرف الكلال ، وبغض للشر لا هوادة فيه ،
وثقة بالعدل لا حد لها .

وأى قلب لا يخاف على فتاة غرة لم تتجاوز الصبا تسعى وحدها في
الطريق العامة إلى غير غاية ، وقد صحبها الفقر والحاجة والضعف وحدائة
السن وشيء من جمال يغرى بها كل غوى ، ويطمع فيها كل مفسد ، وما أكثر
الغواة والمفسدين في هذه الطريق العامة التي تستقيم وتلتوى بين قرى الريف !
* لك الله أيها الفتاة الناشئة ! إلى أين تذهين ؟ ألم تفكري في هذه
الكوارث والخطوب التي تضمرها الحياة للضعفاء والبائسين ، وللضعيفات
والبائسات خاصة ، وتتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هي مصدر خصب
للشر والضر ، وينبوع غزير للسيئات والآثام ؟ ألم تفكري في هذه
الأفاصيص التي كان يمتلي بها صباك والتي كانت تسلي نهارك وتروع
ليلك ، والتي كانت تمتلي بأحاديث الأغوال وقد تفرقوا على الطريق
يعترضون المار حين يمر بهم وقد انقطعت به السبيل فإذا هم يضمرون
له الهول كل الهول ، ويسرون له البغض كل البغض ، وإذا هم لا يكادون
يتنسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه
وعظمه ، وحتى تضطرم في أجوافهم غلّة لا يرونها إلا دمه ، وهو يبلغهم
خائفاً وجلاً قد ملأ الجزع قلبه وفرّق الملح نفسه ، فإن كان قد حمص
الوصية ووعى النصيحة واستعد للقاء الغول ابتدره بالسلام فقلّم أظفاره
واضطره إلى السلم والموادة ، وإن لم يكن قد حفظ ولا وعى ولا هياً نفسه
للقاء الخطوب مر بالغول فالتقمه التقاماً والتمه التهاماً ، وقطع الوسائل

بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يمضي للقائم أمامه . . . ؟

ماذا أعددت يا آمنة هؤلاء الأغوال فإنهم منبثون في الطريق؟

ليسوا سبعة كما كانت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون ، بل أكثر من سبعين ، بل مئة ، بل مئات قد انتشروا في الطريق ، منهم من جلس ينتظر الفريسة ومنهم من مضى يبتغيها ، منهم من برز ضاحياً ومنهم من استخفى في الحقول واختبأ في المزارع ، منهم من يظهر مظهر الغول كريهاً خيفاً لا يكاد تبلغه العين حتى يمتلئ القلب منه فرقاً وحتى تندفع الغريزة إلى اتقائه ومحاولة اجتنابه والحلاص منه ، ومنهم من يظهر مظهر الرجل الوديع أو الشاب الرفيق تبلغه العين فيطمئن إليه القلب ، وتأنس إليه النفس بعد وحشتها ، ثم لا يجد منه إلا الجحى إليه إلا غداً ولا يظفر عنده الواثق به إلا بالشر والنكر والبوار . منهم من اتخذ زى الرجل ، ومنهم من اتخذ زى المرأة ، وكلهم غول قد هيأته الأحداث لأمثالك من الفتيات الضعيفات البائسات اللاتي نبذتهن الأسرة أو اجتثهن الخطوب من أصولهن فهن مشردات يستقبلن الحياة جاهلات بها غافلات عنها ، والحياة تلعب بهن ، تقذفهن من مكان إلى مكان ، وتنقلهن من شر إلى شر ، حتى ينتهي بهن القضاء إلى الغول الظاهر أو إلى الغول المتنكر ، فإذا هن فريسة لهذا أو لذلك ، يلقين العار والحزى ، ويلقن البؤس والضيم ، ويلقن المرض والشقاء ، ويلقن الألم دائماً ، وقد يلقن الموت أحياناً . . . ؟ ! *

لم يفكر آمنة في شيء من هذا حين انطلقت مع الصباح من بيت أسرتها كما ينطلق السهم ، ومضت أمامها مندفعة لا تحس جهداً ولا مشقة ،

بل لا تحس حركة ولا نشاطاً ، بل لا تشعر بأنها تمضى كما يمضى السهم لأنها لم تكن تفكر إلا في سجن قد أفلتت منه وهي تريد أن تبعد عنه ، وفي حرية قد دفعت إليها وهي تريد أن تنغمس فيها انغماساً .

فهى تمضى وتمضى لا تقف ولا تلتفت عن يمين ولا شمال ولا تلتفت إلى وراء ، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التى تتحدث بها الجذبات والأمهات ، قد مضى لغايته ووعى نصيحة الناصح ، فهو لا يلتفت مخافة أن يدركه البوار إن حول وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه ، والفتاة تسعى مسرعة تستقبل بوجهها المشرق الكئيب وجسمها الضئيل النشط ضوء الشمس ونسيم الصبح واستيقاظ الحياة والأحياء ، وما تزال كذلك حتى يغمرها الضحى وحتى يغمرها الحياة التى تشتت من حولها ، وإنما هى مضطرة بحكم الغريزة وبحكم هذا الإعياء الذى أخذ يدرك جسمها الضعيف شيئاً فشيئاً إلى أن تمضى مبطئة وتسعى هوناً . ولا يكاد ينتصف النهار حتى تبلغ البحر وحتى تعبره ، ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر حتى تكون قد بلغت مأمناً وأفلتت من طلب الطالبين وانتهت إلى قرية من القرى فالت إليها تريد أن تبلغ عند أهلها حظاً من راحة و شيئاً من طمام وأن تنفق عندهم الليل .

نعم إنى لأرانى فى هذه الطريق وحيدة شريدة لا أملك إلا نفسى الضعيفة البائسة ، وإلا جسمى النحيل الضئيل ، وإلا ثياباً بالية أو كالبالية ، وأنا مع ذلك لا أحفل بما تركت ولا بمن تركت ، ولا أسأل عما أنا مقدمة عليه من الأمر ، ولا عن أنا مقبلة عليهم من الناس ، إنما هو الهيام فى الأرض والسكر بهذا الشراب الخطر الذى نسميه حب الحرية

والذى يكلفنا أحياناً من أمرنا شططاً . أكنت خائفة . . . ؟ أكنت
آمنة . . . ؟ لا أدري ! وإنما كنت أشعر بالأمرين جميعاً يتعاقبان على
قلبي كما يتعاقب الليل والنهار على الأرض وما عليها .

كنت أطمئن إلى أنى لن أرى أمى ولن أسمع صوتها ، ولن أرى أهل
الدار وأشاركهم فى شىء ، ولن ألتى ذلك الرجل المحرم ذا النفس
القاجرة والقلب الغليظ ، ولن أخضع لغلظته ولن أحتمل تقربه إلى وترضيه لى ،
فيمتلى قلبي أمناً وهدوءاً وتبسم لى الحياة عن أجمل الصور وأحفلها
بالأماني والآمال ، وأجد فى ذلك قوة وشجاعة وصبراً ، فأمضى لا يدركنى
الإعياء ولا ينالنى الكلال . ثم كنت أذكر أختى ولا سبياً بعد أن عبرت
البحر وأخذت الطريق تختلط على ، وأخذت أحاول أن أعرف أين انحرف
بنا خالنا المحرم عن الجادة إلى ذلك الفضاء العريض الذى اقترف إثمه فيه .
كنت أذكر أختى فما أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلها أمامى وإذا أنا
أراها ماثلة ذاهلة كما تعودت أن أراها منذ تركنا المدينة ، وإذا أنا أهم
أن أسعى إليها وأن أمسها بيدي وأن آخذ معها فى الحديث ، وإذا أنا
أنتبه للخطب وأتبين الحقيقة الواقعة ، وإذا ينابيع الحزن تنفجر فى قلبي
وإذا الحزن يجرى مع دمي ، وإذا جسمى كله نار مضطربة ولوعة محرقة ،
وإذا دموعي تنهمر على خدى ، وإذا أنا مضطربة إلى أن أنتبذ
ناحية من الطريق لأبكي على مهل على غير مرأى من الناس .

ثم أنهض مستأنفة للسعى ، وإذا أختى تساورنى ، وإذا الظلال التى
كنت أراها أثناء العلة تطيف بها وتطيف بى ، وإذا ظلال أخرى تملأ الفضاء
من حولى لا أدري أنجمت من الأرض أم هبطت من السماء ، ولكنى أراها
تكثر وتختلط وأسمعها من حولى تصخب وتلغظ حتى أخاف على نفسى الجنون .

أنا على ذلك كله ماضية تتقاذفى القرى وتتدافعى الضياع ،
 استضيف هؤلاء حيناً وأسأل هؤلاء حيناً آخر ، أعمل فى الحقول مرة وأعمل
 فى البيوت مرة أخرى ، وهذان اللونان من الشعور يختلفان على قلبى
 ويتعاقبان على نفسى لا يمهلاتنى فى اليقظة ولا يعفیاننى فى النوم ، أنا
 مضطربة دائماً بين أهلى الذين فررت منهم فراراً ، وبين أختى وصاحباتها
 اللاتى يستجبن لى كلما ذكرتهن كأنما يسمعن دعاء فيسرعن إلى الداعى .
 وأنا ماضية أمامى أتقدم نحو الشرق من يوم إلى يوم ولى من غير شك
 غاية أعرفها وأسعى إليها ، ولكنى لا أكاد أتمثلها ولا أستحضرها ، وإنما
 أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنما تدفعنى إليها الغريزة دفعاً .

أنا ماضية نحو الشرق ، لا أنحرف عن غايئى إلى يمين أو إلى شمال
 إلا لأقضى ليلة فى هذه القرية أو لأستريح ساعات أو لأستريح يوماً
 فى هذه القرية أو تلك ، ولكنى على جناح سفر دائماً ، متجهة نحو
 الشرق دائماً ، ممعنة فى الشعور بالأمن كلما ازدادت من الغاية دنواً ومن
 المدينة قريباً . فالمدينة إذن هى غايئى من كل هذا السعى ، فيها أتمس
 الأمن ، وبين أهلها أتمس الحياة الوداعة! وبيت المأمور هو غايئى من
 المدينة إليه ألقأ وإلى من فيه أفزع وبمن فيه أستعين ، فى ظله أريد
 أن أعيش ، وعند أهله أريد أن أودع قلبى ، وعند خديجة من أهله
 خاصة أريد أن أتمس الراحة لهذه النفس المعذبة ، والشفاء لهذا القلب
 المريض . لن آمن حتى أبلغ هذه الدار ، ولن أبلّ من علتى حتى أرى
 هذه الوجوه وأسمع هذه الأصوات ، وأستأنف حياتى مع الخدم والسادة
 كعهدها منذ أشهر قبل أن تأمرنا أمنا بذلك الرحيل المشثوم . إذا بلغت
 هذه الدار فستقصر يد خالى دون أن تبلغنى ، وإذا اطمان بي المقام فى

هذه الدار فلم يجد الروع إلى نفسى سيلا . ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبى إن سألونى أين كنت ؟ كيف أجيبهم ؟ . . . وبم أجيبهم ؟ أقص عليهم حديثى كله أم أطويه عنهم طياً ؟ بل ما خطب أهل الدار وما خطبى إن رأونى فأذكرونى ثم أبوا أن يفتحوا لى بابهم وأن يلقونى بما أحب أن يلقونى به من الرضا والعطف والابتسام ؟ ما خطب خديجة وما خطبى إن رأتنى فأعرضت عنى لأنها وجدت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم منها مقامى ويلهبها كما كنت أهيا ، ويشاركها فى الجدل واللعب كما كنت أشاركها فى الجدل واللعب ؟ أين أذهب إذا نبت فى هذه الدار ، وإلى من ألتجأ وعلى من أعول إذا تنكر لى أهل هذه الدار ؟

١٣

كلا ! بل هذه الدار كما عرفتها رشيقة أنيقة ، مغرية مطمعة ، لا ترد طارقاً ولا تصد راغباً ، ولا تنجهم لزائر ولا تنبو بضيف . وإلى لأراها من بعيد فأسرع إليها الخطوة كأنما أدفع إليها دفعاً أو كأنما تدعونى ملححة فأستجيب للدعاء . وإلى لأرى دخاناً يصدر عنها وينشر فى الجو فلا أتمثل النار التى يصدر عنها فى المطبخ وإنما أتمثل الطباخ ومن حوله من الخدم يذهبون ويحيثون وأسمع ما يقولون ، وكأنى أشاركهم فيما يأتون من حركة ، وأجاذبهم ما يلفظون به من حديث . وإلى لأدنو من الدار فأرى نافذة مفتوحة فلا أتمثل غرفة خديجة وما فيها من أداة وأثاث ، وإنما أتمثل خديجة نفسها قد جلست إلى بعض ما كانت تلعب به ، أو عكفت

على درس تستظهره أو كتاب تنظر فيه ، وكأني أشاركها في اللعب أو أشاركها في الاستظهار أو أسمع بعض ما تقرأ . وإني لأدنو من الدار فأتمثل حياة الدار كلها كأنها قد غمرتني وكأني قد رجعت إلى مثل ما كنت منذ أشهر جزءاً من هذا الكل ، وشعاعاً منتشرأً مستفيضاً في هذه الحياة التي تملأ الدار حركة ونشاطاً واضطراباً .

وهأنا هذه أبلغ باب الحديقة فلا أتردد في ولوجه ، وأمضي أمامي مصممة كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالي التي كنت أقضيها مع أمي وأختي في ذلك المنزل الحقيق ، وإني لأمضي كما تعودت مسرعة لا ألقى على شيء ، وإني لأصعد في السلم لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، وإني لأبلغ غرفة خديجة فأدخلها وأصادف سيدتي وصديقتي عاكفة على كتاب تنظر فيه . ولكننا كنا نلتقي على الضحك والعبث فالنا الآن لا نضحك ولا نعبث . . . ؟ ! أما هي فواجبة ذاهلة قد أخذت على غرة ، وأما أنا فغارقة في البكاء .

ثم هي تسألني : أين كنت . . . ؟ ومن أين أقبلت . . . ؟ وماذا صنعت في هذا الوقت الطويل . . . ؟ وأنا لا أجيب . وأنني لي أن أجيب بغير هذه الدموع التي تنهمر ، وهذه الزفرات التي تنفجر ، وهذا الشبهق الذي يتردد في حلقي متصلاً ببعضه ببعض يزداد شدة وعنفاً حتى يكاد ينتهي بي إلى أزمة من هذه الأزمات التي تفسد أعصاب النساء حين يلح عليهن البكاء . . . !

وسيدتي وصديقتي قد أقبلت عليّ فتتلطف لي وترفق بي وتهون عليّ بعض ما أجد ، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجد . ثم يسمع

الشهيق وإذا سيدة البيت قد أقبلت ، وإذا هي ليست أقلّ دهشاً
 ولا وجوماً من ابنتها ، ولكنها تصرف الفتاة عنى صرفاً شفقة عليها من هذا
 المشهد الذى قد يؤذى نفسها الشابة الناشئة ، ثم تدعونى إلى أن أتبعها ،
 ثم تهديّ روعى وتتلطف لى فى الحديث وتسالنى عن أمرى فلا أجيها
 بشىء ، أو لا أكاد أجيها بشىء ، إنما هى جمل متقطعة غارقة فى الدموع
 فيها ذكر للرحيل على غير موعد ، وفيها ذكر للقرية ورؤية أهلنا فيها ،
 وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألم بنا هنا لم نكن نتظره ولا نقدره ففقدنا
 أختى ، وفيها ضيق بحياة القرية فى ذلك الحزن المتصل ، وحنين إلى السادة
 الذين لم ألق فى خدمتهم إلا خيراً وبراً ، ثم فيها ذكر العودة المنفردة فى
 الطريق الطويلة الملتوية المخوفة ، ثم انهمار للدموع وانكباب على سيدتى
 أقبل يديها وقدميها كأنى أشفق أن تردنى رداً أو تدفعنى عن الدار دفعاً ؛
 ولكنها حدبة علىّ ، رفيقة بى ، تقيمنى وتنهضنى وتأمرنى أن أذهب إلى
 حيث أصلح من أمرى وأستأنف عملى فى الدار ، كأنى لم أفارقها
 أشهراً ، وكأنى لم أفارقها فجأة فى غير استئذان ، وكأنى لم أزد على أن
 غبت يوماً أو أياماً ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه . . ! وأنا أذهب إلى
 حجرتى فأراها كما تركتها لم يشغلها أحد ، ولم تسكنها خادم بعدى ،
 ثيابى فيها كما تركتها وأدواتى فيها كما غادرتها لم ينقل شىء منها ولم يحول
 عن مكانه ، ثم ما هى إلا أن ألقى الخدم ويلقونى بشىء من الدهش
 والوجوم ، وأخذ فى بعض الحديث ، ثم أنظر فإذا كل شىء قد استقر
 وإذا أنا واحدة فى الدار من أهل الدار كأن لم يكن بينى وبين الدار فراق .
 ثم أعلم ما أعلم من حزن خديجة علىّ ووجدها بى ، وإبائها على أهلها

أن يتخذوا لها خادماً غيرى ونزول أهلها عند ما كانت تريد .
ثم أستأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحيها من قبل .
ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب ، وما أشد ما احتملت من
الآلام ، وما أطول ما أنفقت بعيدة عن الدار من الشهور ! وكيف
لا تطول هذه الأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما كان ، وقد
لقيت فيها من الشر كل ما لقيت ، وقد واجهت فيها الموت ، وقد عانيت
فيها المرض ، وقد تعرضت فيها للجنون أو لمثل الجنون ، وقد تعرضت فيها
لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والمحنة والخوف . . ؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك
لا بكادون يشعرون بأنى فارقهم أو غبت عنهم ، ولكن أنا أعلم من هذا
كله ما أعلم ، وأنا من أجل هذا أشعر بأنى قد فارقهم وقتاً طويلاً ،
أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن ، وأطول مما يحسب الناس . إنهم قد نسوا
رحلتى ونسوا عودتى وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون فى ولا يسألون عنى .
ولكنى أنا لم أنس من هذا شيئاً . بل أنا أشعر شعوراً غريباً ، أشعر
أنى قد أخذت من أهل الدار فتاة فدفنتها هناك فى قرية بعيدة
من قرى الريف تظلها هضبة من هذه الهضاب التى تلى الصحراء ، ثم
رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً . أخذت
منهم أمانة الضاحكة فى أكثر الوقت ، الباسمة دائماً ؛ أخذت منهم أمانة
الغرة الساذجة التى تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شىء ، والتى
لا ترى فى الحياة إلا لعباً ، والتى تحتم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها
تلعب ، وتتعلم من الخدمة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب ، لا تعرف

المم ولا تتمثله ، ولا تعرف أن للحياة أثقالا وتكاليف وإنما تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام لليل إذا أظلم وابتسام لما يملأ النهار من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام ؛ أخذت منهم آمنة التي كانت تنشأ وتنمو كما تنشأ هذه الشجيرات في الحديقة وتنمو ، فيها نضرة ولين ، وفيها بهجة وجمال .

أخذت منهم آمنة هذه ففرقت نفسها تفريقاً ، في الطريق حين كنت ذاهبة إلى الغرب تركت بعضها في بيت العمدة الذي ضيقتنا حين سمعت لحديث أختي وحين سمعت لحديث أولئك النساء ، وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التي كانت تترأى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمضي بنا الجملان في الطريق الصامته وقد تقدم الليل وثقل ، ثم تركت أكثرها في ذلك الفضاء العريض فسال مع الدم الذي سال ، ودفن مع الجثة التي دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء ، ثم تركت سائرها نهياً لتلك العلة التي ذهبت بما بقي من نفسي وإن أبقت على بقية ضئيلة من جسمي أخذت الحياة تعود إليها بعد البرء قليلاً قليلاً . أخذت منهم آمنة هذه وفرقتها على هذا النحو بين المدينة والقريّة ثم رددت عليهم آمنة أخرى قد تشبه تلك في بعض ملامح الوجه ، وقد تشبهها فيما بقي من اعتدال القامة ، وقد تشبهها في طبيعة الصوت وبعض الحركات ، ولكنها تخالفها بعد ذلك في كل شيء . رددت عليهم آمنة الحزينة دائماً ، الواجحة في أكثر الوقت حتى كأنها بلهاء غافلة . رددت عليهم آمنة التي رأت الشر بشعاً والإثم عريان والجرم منكراً ، فلأتت نفسها من هذا كله وإذا هي سيئة الظن بكل إنسان ،

وإذا هي شديدة الإشفاق من كل شيء ومن كل إنسان ، وإذا هي عابسة للنهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم ، وقد اتخذت لنفسها من ظلمة الليل الخالكة ثوباً كثيفاً ضافياً فأسبغته عليها إسباغاً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام .

نعم ، رددت عليهم آمنة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترسلها ، ولا تبسط الوجه إلا ريثما تقبضه ، ولا تقبل على شيء إلا ريثما تنصرف عنه ، ولا ترى في اللعب إلا ثقلاً ، ولا ترى في الخدمة والدرس إلا عناء وجهداً . ويح أهل الدار ! أيقبلون مني هذه الفتاة التي رددتها عليهم ويتسلون عن تلك الفتاة التي أخذتها منهم ؟ ويحي أنا من أهل الدار إن لم يعرفوني ولم يألّفوني كما عرفوا تلك الفتاة وألّفوها ! ولكنهم قوم كرام لا يضيقون بي ولا ينفرون مني ولا يلقونني إلا بالعناية والرعاية والعطف . أو لم أتحدث إليهم بذلك المصاب العظيم الذي قد ألم بنا فلاً قلوبنا حزناً وبؤساً ؟ وإذن فهم يعزوني ويأسون جراح قلبي ، وهم لا ينظرون إلىّ كما ينظرون إلى خادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقة يجب أن تعين فتأهم على ما في الحياة من جد ولعب ، وإنما ينظرون إلىّ كما ينظرون إلى فتاة بائسة قد آوت إليهم فهم يؤرونها مكرمين لها مشفقين عليها ، يؤثرونها بالرحمة والراحة والهدوء .

وخديجة . . . ويح خديجة ! ما كنت أحسب أن فتاة نشأت في مثل ما نشأت فيه من نعيم ، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت ألا تعيش إلا فرحة مرحة ، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين ، وكيف تبلغ

بغريزتها ما لم يكن بد من التجربة الطويلة العسيرة لبلوغه بالعقل والإرادة .
 إنها لتفهمنى في غير سؤال ، إنها لترجمنى في غير تكلف ، إنها لترثى
 لى في غير كبرياء ، إنها لتتصرف بى عما ألفت من فرح ومرح ومن
 دعاية ولعب ، إنها لتتحدث إلى حديث الفتاة العاقلة الرشيدة ، إنها
 تشغلنى عن همى بما تقص على من أمرها أثناء غيبتى وبما تقرأ على مما
 قرأت أثناء هذه الغيبة وبما تقرؤنى مما لم أشاركها فى قراءته ، إنها لتفتح
 لى أبواباً ما كانت لتخطر لى على بال . إنها لتنبئنى بنبأ عجيب لم أفهمه
 إلا بعد مشقة وجهد وتكرار ! تنبئنى بأنها قد أخذت تتعلم لغة أخرى
 تسميها الفرنسية فلا أفهم منها شيئاً ، لغة أخرى ! وكيف يكون ذلك ؟
 إنى أعرف أن هناك لغة الريف التى كنت أتحدثها ، ولغة القاهرة التى
 تتحدثها خديجة ، ولغة ثالثة نقرؤها فى الكتب فلا نعجز عن فهمها
 وإن وجدنا فيه بعض العسر ، فكيف توجد لغة أخرى ، وما عسى أن
 تكون ، وكيف يتعلمها الناس ؟ إنها تظهر لى كتباً ما كنت أقدر
 أن أراها ، وإنى لأنظر هذه الكتب فلا أفهم منها إلا بعض الصور ، وإنى
 لأحاول النظر فى الحروف فلا أعرف لها أولاً ولا آخرأ ، ولا أعرف لها
 رأساً ولا ذيلأ ، وإنها لتضحك فى رفق ، وإنها لتحس شيئاً من الكبرياء
 لأنها تعلم ما لا أعلم ، وإنها لتحاول القراءة فى هذه الكتب فتبلغ من ذلك
 ما لا أبلغ ، وإنها لترجم بعض ما تقرأ فأفهم عنها ما تقول بالعربية
 وأدهش وينتهى بى الدهش إلى أفصاه . . .

وهذا أستاذها السورى قد أقبل وإنها لتلقاه فيتحدث إليها وترد عليه

بهذا الذى لا أفهمه فأزداد بها وبه إعجاباً وفتنة . وهذه خديجة تكبر
 فى نفسها وتكبر فى نفسى وتقوم منى مقام المعلم ، وإذا هى تقرؤنى
 هذه الحروف التى لم أكن أقرؤها، وتعلمنى هذه اللغة التى لم أكن أعلمها،
 وإذا أنا تلميذة لها فى الصباح وتلميذة معها فى المساء ، وإذا المعلم بارع
 وإذا التلميذة على حظ من ذكاء ، وإذا أنا أجد فى هذه الحياة الجديدة
 وفيها نقرأ معاً وما نتعلم معاً عزاء أى عزاء ، ونسياناً أى نسيان ؟ وإذا الأستار
 تلتى شيئاً فشيئاً بينى وبين هذا الماضى البشع القريب ، وإذا كل شى
 فى هذا الماضى ينمحنى قليلاً قليلاً إلا شخصين اثنين لا ينمحيان
 ولا يتضاءلان ، وإنما يرتسمان فى نفسى ارتساماً قوياً ويتمثلان أمامى
 تمثلاً متصلًا ملحاً ، وهما شخص أختى صريعاً يتفجر من صدرها الدم
 فى الفضاء العريض ، ويغمغم فيها بكلمات لا أفهمها ، وشخص ذلك
 المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء العريض
 الذى صرعت فيه .

نعم ! ذلك المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء
 العريض الذى صرعت فيه . لقد منحها الحياة ، ولقد قضى عليها بالموت .
 وهل ذاق البائسة من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التى
 جنحتها فى هذه الدار القائمة من دارنا غير بعيد ! إلى هذه الدار دُفعت

حين هبطت من أقصى الريف ، فأخذت تعرف الحضارة وتألفها وتبلى
 من طبيباتها مارقق لها العيش وقد كان غليظاً ، وحبب إليها الدهر وقد كان بغيضاً .
 فيها عرفت الترف واطمأنت إلى النعيم ! ولم تكد تنشأ وتنمو حتى
 مدّ لها الحب ذراعين فيهما النعيم والبؤس ، وفيهما الرحمة والعذاب ،
 فأسرعت إلى ما كان يترأى لها من ذلك جاهلةً له ، مفتونة به ، متهاككةً
 عليه ، ثم انصرفت كارهةً عما بلت ، وما أدرى ماذا كان يحزنها ويمزق
 فؤادها تمزيقاً حين كانت تقص على أنباءها وتحدثني بأحاديثها : أهو
 الندم على ما قدمت من ذنب واقترفت من خطيئة ، أم هو الأسف على
 ما فارقت من لذة وحرمت من نعيم ؟ وما أدرى ما الذي كان يملأ قلبها
 فرقاً ورعباً حين كانت تترأى لها تلك الأشباح الحمراء : أهو الموت الذي
 كانت ترى نذيره منكرأً بشعاً ومسمعه صارخاً ملحاً ، أم هو اليأس الذي
 كان يقطع الأسباب بينها وبين هذا المهندس الشاب ، ويلقى بينها وبين
 الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا سبيل إلى أن تُجتاز ؟

نعم ! هذا المهندس الشاب ! لقد ارتسم شخصه في نفسي ارتساماً قوياً
 ملحاً ليس إلى محوه من سبيل . ولقد كنت أرى أختي فإذا هو ملازم لها
 كأنه الظل ، بل كأنه ظل من هذه الظلال الحمراء التي كانت تلازمها
 حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لي في الطريق ! بل لقد
 تفرقت عن أختي كل هذه الظلال وانمحت انمحاء ، ولم يبق معها إلا هذا
 الظل الذي لا أكاد أراه حتى تضطرب نفسي اضطراباً عنيفاً ، وحتى يثور
 في قلبي شعور قوى مختلط غريب شديد التعقيد ، شعور فيه الخوف والرغبة ،
 وفيه البغض ، وشيء يشبه الحب ، أو حب الاستطلاع على أقل تقدير . . .

مَنْ هذا الشاب ؟ أو من عسى أن يكون ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟
 أى شيء فيه أغوى هذه الفتاة البائسة ودفعها إلى ما دُفعت إليه ؟ ما عسى
 أن يكون حظى منه إن لقيته ، وأن يكون حظه منى إن لقيته ؟ أو أحبه أم
 أبغضه ؟ أيجنى أم يبغضني ؟ ما هذه الغواية التي أفسدت على أختي أمرها وأفسدت
 علينا جميعاً أمرنا ، وقضت على أختي بالموت ونغصت علينا جميعاً لذة الحياة ؟
 خواطر كانت تملأ قلبي إذا أصبحت ، وكانت تملؤه إذا أمسيت ،
 وكانت تلح عليه بين ذلك فلا تردّ عنه إلا في شيء من الجهد والعنف
 حين تلح على تخديجة في الحديث أو في القراءة أو في مشاركتها فيما كانت
 تحرص على أن أشاركها فيه من الدرس والاستظهار .

خواطر كانت تملأ قلبي في اليقظة ، وكانت تملؤه في النوم ، وكانت
 تصرفه عن كل شيء إلا عن هذه الفتاة التي سُفك دمها في ذلك الفضاء
 العريض ، فذاقت الموت وذهبت نفسها إلى السماء وهوى جسمها إلى
 الأرض وهيل عليه التراب ؛ وإلا هذا الفتى الذى ما زال يغدو ويروح
 فرحاً مرحاً ، مغتبطاً مستبشراً ، تبسم له الحياة ويبسم هو للحياة .

ليتني أدرى أيدكر ضحيته تلك أم قد نسيها . وليتني أدرى أيدكرها
 إن ذكرها في شيء من الرفق بها والعطف عليها والحنين إليها ، أم يذكرها
 إن ذكرها في إعراض الزاهد وانصراف المزدري ! وأين تكون هذه الفتاة
 من نفسه ، وما أكثر الفتيات في نفسه ! لقد كان بالقياس إليها كل
 شيء ، ولم تكن هي بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره وعرف هو غيرها
 كثيرات . لم تذوق لذة الحياة إلا بين ذراعيه ، وما أكثر المواطن التي ذاق
 هو فيها لذات الحياة ! وما أكثر ما ذاق من ألوان اللذات وما بلا من
 صنوف النعيم ! وليتني أعرف كيف يلقي ذكرها إن ذكرت له : أيبسم

لصورتها أم يلقاها بالعبوس ! بل ليتنى أعرف كيف يلقى النبأ البشع المروع
 إن ألقى إليه : أيجزئه أن يعلم أنها ذاقت الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها
 إليه ، أم يقع هذا النبأ من نفسه موقعاً يسيراً فلا يثير في قلبه حزناً ولا أسفاً
 ولا يسلط على نفسه لوعة ولا ندماً !

وكذلك امتلأت نفسي بهذا المهندس الشاب ، حتى لقد كنت
 أتمسّس الفرار منه فلا أظفر به إلا في جهد أي جهد وعناء أي عناء ، وحتى
 لقد أنكرت نفسي وأنكرت من كان حولى من الناس والأشياء ، وأنكرنى
 من كان حولى حين طال عليهم ما كنت مغرقة فيه من الوجوم والذهول ،
 إلا خديجة فإنها لم تنكرنى ولم أنكرها ، وإنما مضت فيما كانت فيه رفيقة
 بى عطوفاً على ، تعزىبى وتسليبى وتفنن فى ذلك ما وسعها الافتنان . وأنا
 أعرف لما هذا فأحمده وأقدره وأردّ عليها بعض ما كانت تسدى إلى من
 جميل ، فأنصرف إليها حين ألقاها عن هذه الحواطر ، ويفرغ قلبى لما
 أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس ، ولكن لا ألبث أن أعود إلى
 ما كنت فيه من وجوم وذهول . وتحس هي منى ذلك فتصرف عنى
 بعض الشيء وتركنى لما أنا فيه ، كأنها تقدر أنى أجد فى هذا الوجوم
 والذهول لذة وراحة واطمئناناً .

وما تزال هذه الحواطر تلح على وتستأثر بى حتى تستحيل إلى شىء من
 الرغبة القوية الملحة فى أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأتحدث إليه . وأنا
 أتمسّس أخباره وأتبع أسراره وأتلقط ما يلقى عنه من حديث . ولم تكن
 داره بعيدة من دارنا . وكان الظريف قد ائتمرت بى فحياتى لى أن أرى
 ذهابه وبجيئه من نافذتى حين يغدو من داره أو يروح إليها ، من هذه
 النافذة التى طالما كنت أبادل أختى منها الإشارة وأسارقها منها بعض

الحديث . من هذه النافذة التي لم أذكرها ولم أذكر منها حين عدت إلى الدار ، وإنما مكثت أياماً وأسابيع أجهلها جهلاً وأهملها إهمالاً . ثم خطرت لي فجأة وفُرض عليّ مكانها فرضاً ، فإذا أنا أدنومنها وجلة وأفتحها جزعة محزونة ، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة « هنادى » ذاهبة جائية ، متغنية بما كانت تتغنى به من أغاني الريف ثم أغاني المدينة . وإني لأخذ موقفي من النافذة في الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، وإنما هو قلب ينفطر ، ودموع تنهمر ، وصورة لأختي لا تأتي من الدار ولا تعبر إلى ما بيني وبينها من طريق ، وإنما تأتي شاحبة حزينة من قلبي هذا الآسف الحزين . وأنا مع ذلك أطيل الوقوف إلى النافذة وأكرره ، وأدنو منها كلما أتيج لي الدنو في النهار حيناً وفي الليل أحياناً . آلفها وتألّفني ، حتى أصبح وقوفي منها وجلوسي إليها عادة طبيعية من عاداتي كلما دخلت الحجره وأغلقت بابها من دوني . والأيام تمضي وتتبعها الليالي ، وإذا أنا أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تنهمر الدموع ، ولا تتمثل لي صورة أختي شاحبة كثيبة ، وإنما أنا أرى أمامي وأنظر ، فإذا صورة أختي كما كنت أعرفها تذهب وتجيء . صوت أختي ينتشر في الفضاء فيملؤه فرحاً ومرحاً وبهجة وسروراً ، متغنية بهذه الأغنية التي طالما كانت ترددها بصوتها الرخيم الممتليّ العذب فيحملها الهواء إلى النفوس كأنها قطرات الندى :

آه يا نا يانا من غرامه يا نا
 وإن كنت أحبه ما على ملامه

وما كنت أفهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس جميعاً : إن كان الناس يفهمون منها شيئاً ؛ فهي شائعة ذائعة في المدينة وفيها حولها من القرى تسمعها في كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة ، بل من كل

صبية تحاول الغناء أو تقصد إليه . أما الآن فإلى أتمثل أختي كشيبة حزينة
ياثسة ، كأنها ظل شاحب ليس له ثبات ولا استقرار ، وإنما هو هائم
مضطرب يصدر عنه صوت ضئيل نحيل كأنه الصدى ، وهو ينتشر في
الجو انتشاراً يملأ القلوب لوعة وأسى ، وهو يحمل هذه الأغنية كأنها شرر
النار لا تمس قلباً إلا أحرقته إحراقاً ، ولا تبلغ نفساً إلا فرقها تفريقاً ؟ !
مالى أسمع هذه الأغنية فأفهم منها ما لم أكن أفهم ، وأعلم منها ما لم أكن
أعلم ، وأحس منها ما لم أكن أحس ، وأستكشف فيها من المعاني والمرامى
والأغراض ما لم يكن يخطر لى من قبل على بال ؟

إن هذه الآهة التي يرسلها الصدى النحيف ممتدةً ضئيلة لا تكاد
تثبت ولا تكاد تنهى ، لتثير في نفسى عواطف لم أكن أعرفها ولم يكن
لى بها عهد . وإن هذا النداء ليصور لنفسى الأنين كما يصور لنفسى
الاستغاثة ، وكما يصور لنفسى اليأس من البر حين يتكرر . وإن هذا
الاعتذار ليصور لنفسى الهيام في غير احتفال بالعاقبة ، ولا ندم على
ما كان ، ولا تقدير لما هو كائن . وإنه ليصور لنفسى جرم هذا الحال
الأيثم الذي سمع الأغنية ألف مرة ومرة فلم يعقلها ولم يفهمها ولم يرى
هذه المحبة الهائمة من اللوم ، ولم يُعفها من الإثم ، ولم يصرف عنها العقاب ؛
لأنه جامد القلب جاف الطبع ، خشن النفس غليظ المزاج ، لم يذق لذة
الحب ولا ألمه ، ولم يعلم أن من الحب ما يكون فوق اللوم ، وما يكون فوق
الإثم ، وما يكون فوق العقاب .

نعم ! وإني لأسمع هذا الصوت الضئيل النحيل ينشر هذا الغناء اليائس
الحزين ، فأتصور هذا المهندس الشاب قد برع بحاله حتى أصبح فتنة

لا تتقي وبحراً لا يقاوم ، وقد رقّ حديثه حتى أصبح شركاً يصيد القلوب
 وحبالةً تختلس النفوس ، وقد لطفت حركاته حتى لم يبق للامتناع عليها
 سبيل . وإنى لأنظر فإذا هذه الأغنية تثير أمامي صوراً ثلاثاً : صورة هذا الفتى
 الجميل الرائع يغرى بالإثم ويدفع إليه ، وصورة هذا الشيطان الآثم المرید
 يأخذ بالإثم ويعاقب عليه ، وصورة هذه الفتاة البائسة اليائسة يتنازعها الإغراء
 المضنى والعقاب المنفى . ثم أنظر إلى هذه الصور فأسأل نفسي أين أنا منها ؟
 أما خالى فإنى أبغضه بغضاً لا حدّ له ، ولو ظفرت به لمزقته تمزيقاً .
 وأما أختى فإنى أرثى لها رثاء لا حدّ له ، ولو استطعت لرددت إليها الحياة .
 وأما هذا المهندس الشاب فما أدرى أين يكون مكانى منه : أهو مكان
 المبغضة العدو أم هو مكان الحبة الهائمة؟! إنه النار المضطربة ، وإنى الفراشة
 التى تهفو إليها وتكلف بها ولكن عن علم بأنها محرقة مهلكة . . . لأعلمن
 من علم هذا المهندس الشاب أكثر مما علمت ، وليكونن لى منه مكان
 لم أكن أقدره . لأطفئن هذه النار أو لأحترقن بلهبها المضطرم !
 ومنذ ذلك الوقت أخذت أستيقن بأن حياتى موصولة بحياة هذا الشاب ،
 وبأن مقامى فى بيت المأمور موقوت ، وبأن انتقالى منه إلى بيت هذا
 الشاب محتوم إن لم يتمّ اليوم فسيتمّ غداً .

ولزمتُ النافذة أرقب منها الدار أثناء النهار وأوائل الليل ، كأنما وكلت
 بحراستها أو تتبع ما يجرى فيها . وما هى إلا أن أعرف مواعيد غدو الفتى
 ورواحه ، وخروجه من داره للسمر إذا أقبل الليل ، ورجوعه للنوم إذا

انقضى من الليل أكثر من ثلثيه ، وإذا أنا قائمة إلى النافذة في هذه
المواعيد أراه حين يخرج ، وأراه حين يدخل ، ولا تطمئن نفسى لأمر من
الأمر أو عمل من الأعمال إلا إذا رأيته غادياً أول النهار ورائحاً بعد الظهر .
فإن حيل بينى وبين ذلك لطارئ من قبله أو من قبلى فهى الحياة
المضطربة ، والنفس المفرقة ، والفكر المشرد ، والقلب الذى لا يهدأ ولا يستقر .

ثم يشتد الأمر بى وتلح الرغبة فى هذه المراقبة علىّ ، وإذا أنا أتلمس
الأيام التى لا يخرج فيها من داره مع الصبح فأبقي فيها أمام النافذة أترقب
ما أرجح أنه لن يكون ، ولكننى أترقبه على كل حال لأننى لا أريد أن
يفوتنى مخرجه من الدار ، كأنما اتصلت به حياتى اتصالاً ، ومُدت
الأسباب المتينة بين هذه الدار وبين قلبى ونفسى وعينى ، فهى لا تبرح
خاطرى مهما تكن الظروف ، وهى تجذبنى إلى النافذة جذباً . وأنا أحس
مع ذلك أن هذا ليس إلا أول الشر ، وأن يوماً قريباً أو بعيداً سيأتى من
غير شك لا تجذبنى الدار فيه إلى النافذة لأراها ولأرى هذا الشاب
خارجاً منها أو عائداً إليها ، بل تجذبنى الدار إلى نفسها لألج بابها وأعرف
أصحابها ، وأتحدث إلى من فيها . ولو أنى أرسلت نفسى على سميتها وخليت
بينها وبين ما كانت تريد لما تأخر مقدم هذا اليوم ، ولكننى دافعت نفسى
عن هذه الدار دفاعاً شديداً ، وجادلت نفسى فى الاتصال بها جدالاً
طويلاً ، وظفرت من هذا الجدال وذلك الدفاع بتأخير اليوم المختوم
أسابيع بل أشهراً لست أدرى أكانت طولاً أم قصاراً ، ولكننى أعلم أن
أحتمالها كان ثقيلاً ، وأنى كنت لا أستقبل النهار حتى أستيقن أن الهزيمة
ستم فيه ، ولا أستقبل الليل حتى أثق بأنه لن يتقدم حتى يكون التسليم

والإذعان . وأمضى مع ذلك في جهاد نفسي ومدافعها . حتى إذا استقر كل شيء وغلقت الأبواب ، وانقطعت سبيلى إلى الدار ، اضطرت إلى أن آوى إلى مضجعى ، وسجلت لنفسى يوماً من أيام النصر وأمداً من آماد الفوز ، وأجلت الهزيمة والتسليم إلى غد .

وإني لأرى نفسى ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضى وأخذت طلائع الليل الشاحبة تغزو الأرض ، وإني لأراني خارجةً كالمنسلة من دار المأمور ، ساعيةً كالمهاربة التى تحرص على الاستخفاء ، أدور حول الدار مجاورةً أسوار الحديقة حتى لأكاد أمسحها مسحاً ، ثم منعطفة بعد قليل ، ثم منطلقةً كالسهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق . وألجُ حديقة المهندس ، ثم أسعى هادئةً مضطربةً معاً نحو البستاني كأنما أريد أن أسأله عن شيء ، حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئاً ، وإنما وقفت أمامه ذاهلةً غافلةً بلهاء يملكنى الخوف ويغمرنى الحياء . أريد أن أمضى أمامى حتى أدخل الدار وأبلغ غرفة « هنادى » فأقضى فيها لحظة أو لحظات ، ولكنى لا أستطيع أن أتقدم ، والبستاني يسألنى من أنا ومن أين أقبلتُ وماذا أريد؟ فإذا ألحّ علىّ فى السؤال وأحسست أن صمى يطول وأن الرجل سينتهى إلى الضيق بى وبما أعرض عليه من غفلة وبله وذهول ، وليتُ مدبرة ، وانصرفت نافرة لا ألقى على شيء ، كأننى أخشى أن يتبعنى تابع أو يتعقبنى متعقب . وما أزال أشدّ فى العدو حتى أبلغ دارنا فأنسلّ إليها لم يشعر بخروجى منها ولا بعودتى إليها أحد . ثم أمضى متجاهلةً متغافلةً حتى أبلغ غرفتى وأخذ موقفى من النافذة وقد سجلت على نفسى بعض الهزيمة وإن لم أنته بها إلى الغاية .

على أنى ألفت الطريق بين هاتين الدارين ، وألفت البستاني والاختلاف إليه ، والأخذَ معه في أطراف من الحديث ، وتبادلَ الإشارات معه من النافذة ومسارقه بعض الكلام .

ثم لم تتصل الأيام بيني وبين هذا البستاني حتى كان الظاهر من أمر هذا المهندس الشاب عندى واضحاً معروفاً: أعرف من عاداته وأطواره ومن ذهابه وإيابه ومن جده وهزله ما يمكن للمثل أن يعرفه حين يتصل بخدمه والمقرين إليه .

على أن المعرفة لم تقتصر على البستاني وإنما تجاوزته إلى الخادم ؛ فقد كان هذا المهندس لا يستطيع أن يكتبني ببستانيه ، وإنما هو في حاجة إلى خادمٍ تصلح من أمره وتشرف له على نظام الدار . وقد علمت أن أختي لم تكذ تفارقه حتى تعجل البحث عن يخلفها ، واهتدى بعد قليل من الوقت إلى هذه الفتاة الجميلة الوداعة ذات الوجه المشرق والجسم البصر والعقل الضيق القصير . اهتدى إلى «سكينة» هذه التي أقامت عنده خليفةً لأختي . والتي كنت أتحدث إليها فلا أرى عندها غناء ، ولا أجد في الاستماع إلى أحاديثها لذة ، ولا أجد نشاطاً إلى أن أشاركها فيما تخوض فيه من لغو . ولكنني مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشتد الصلة بيني وبينها وتزول الكلفة . ولم يكن في هذا مشقة ولا عسر ، فما أسرع ما اتصل الحديث ! وما أسرع ما انتهينا به إلى الدخائل والأسرار ! وما أسرع ما أحسست في نفسي عداوةً آثمةً تشتد كل يوم وتنمو حتى تملأ قلبي وتملك على كل أمرى وتكاد تخرجني عن طورى وتدفعني إلى ما لا خير فيه . فقد فهمت - وليتني لم أفهم - أن سكينة لم تخلف هنادى على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خدمة فحسب :

وإنما خلفتها على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب ، بل خلفتها على هواه وبجونه وعلى إثمه وِعَوايته ، وما أكثر ما لهذا الشاب من الهوى والمجون ، ومن الإثم والغواية ! إنما هو صائد يحتبل الفتيات احتبالاً ويختلبهن اختلاباً ، بصرفهن عن الجادة وينحرف بهن عن القصد ، حتى إذا بلغ منهن ما يزهده فيهن خلى بينهن وبين ما ينتظرهن من الموت أو من حياة هي شر من الموت .

وإذن فقد خان هنادى ولم يحفظ لها عهداً ولم يستبق لها مودة ، ولم يكد يفارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها ، وانس لذته وهواه حيث استطاع ، لم يخجل بما قدّم من سوء ، ولم يخجل بما قدمت إليه من تضحية ، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب يُنفقُ فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحياة وتُسلى به الغربة في مدن الأقاليم .

هو خائن إذن ، وهو يضيف إثم الخيانة إلى إثم الغواية ، وهو خليق أن يلقي جزاء هذين الإثمين كأشنع ما يكون الجزاء ، وهو لاق حظه من هذا الجزاء في يوم من الأيام ، ولاقه من يد آمنة هذه التي شهدت الموت مرتين : شهدته حين عُدِي على أختها من يد ذلك الخال الأثيم في ذلك الفضاء العريض ، وشهدته حين عُدِي على ذكرى أختها من يد هذا المهندس الشاب الغاوى وفي هذه الدار الصغيرة الأنيقة التي يقوم عليها البستاني وتضطرب فيها سكينته كما كانت تضطرب فيها هنادى .

أغيرة" هذه التي تضطرم في قلبي اضطراماً وتحجب إلى التفكير في الموت وكيف يساق إلى الناس ، وتحجب إلى التفكير في الخناجر التي تمزق الصدور وفي السم الذي يمزق الأحشاء ؛ أغيرة" هذه التي يغلي لها الدم في عروقي ويصعد لها اللهب في وجهي وتقدح لها عيناي بشيء كأنه الشرر .

يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظري وعلى أن يتساءلوا ما خطبي وإلى
أى حال سينتهي بي ما أنا فيه من الدهول ؟ !

أغيرة" هذه التي زادت الحزن عن نفسي وأقامت مكانه غضباً نائراً
متصلاً لا يهدأ ولا ينقضي ؟ ولمن أغار أو على من أغار ؟ أغائرة" أنا لهذه
الأخت البائسة التي ذاقت الموت في سبيل هذا الفتي دون أن يكون
لتضحيتها أهلاً ؟ أغائرة أنا لهذه الرغبة التي كانت تملأ نفسي وتملك قلبي
وتدفعني دفعاً إلى أن أعرف من أمر هذا الشاب ما كنت أجهل ، والتي
لم تكذب تبغ غايتها حتى انتهت إلى يأس مهلك لا مخرج منه ولا آخر له ؟
أغائرة أنا لهذا التفكير الطويل فيمن لم يكن أهلاً للتفكير ؟ لمن هذه الغيرة
وعلى من هذه الغيرة ، أو لإلام تريد أن تنتهي بي هذه الغيرة ؟

لا أدري ! ولكني أعلم أنها قد جعلت مقامي في دار المأمور عسيراً
وعشرتي لخديجة شاقة ! فقد توحشت أو كدت أتوحش ، وأصبحت نافرة
من كل شيء حتى من خديجة التي لم أكن أظن أنني سأعرض عنها يوم
من الأيام . وقد أخذت أحس أن مقامي قد أخذ يثقل ، وأن عشرتي
قد أخذت تشق علي من حولي ، وأن خديجة قد أخذت تجزيني جفاء
بجفاء وإعراضاً بإعراض .

لك الله يا آمنة ! إلام تدفعك هذه النفس المضطربة التي لا تهدأ ، وهذه
العواطف النائرة التي لا تستقر ، وهذا القلب الهائم الذي لا يعرف ما يريد ؟ !

وأصبحت ذات يوم فإذا شيء غريب يضطرب في جو الدار أحسه
 ولا أتبينه ، وأشعر به ولا أحققه ، ألمحه في وجه المأمور وفي وجه ربة البيت
 حين ينظران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيها أمل مبهج وحزن مكتئب ،
 وحين يخلوان للحديث بعد الغداء أو بعد العشاء فتطول بينهما الخلوة أكثر
 مما تعودت أن تطول . وألمحه في هذا الابتسام الذي يهديه المأمور سخياً
 كريماً إلى أهل الدار جميعاً ، متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه ، متلطفاً
 لمن لم يكن يحفل بوجوده ، وفي نظرات طويلة يلقيها عليّ أنا حين يلقاني ،
 وفيما تظهر ربة البيت من تبسط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن
 تأخذ معهم بأطراف الحديث .

ألمحه في هذا كله ، ولكنني أجد فيه غموضاً يثير ميلي إلى الاستطلاع ،
 ويكاد يسلبني بعض الشيء عن المهندس الشاب وعمما يقع في داره من خيانة
 وإثم وعمما يثير في نفسي من غضب وغيره . وأهمُّ أن أسأل خديجة عن هذا
 الذي ألمحه ولا أستبينه ، ولكنني أجدها غافلة لا تلمح شيئاً ولا تحس شيئاً
 فأعرض عما هممت به وأكتفي بالملاحظة والانتظار . على أن الانتظار لم
 يطل ، فما تنقضى أيام قليلة حتى تظهر حركة في دار المهندس الشاب
 تستتبع حركة في دارنا ، ثم تتلاحق الحوادث مسرعة ، وإذا هي تملكني
 وتغمرنى وتستأثر بي وتنسيني كل شيء وتذكرني بكل شيء في وقت واحد

وتخرجني من هذا السكون اليأس الذي لزمته إلى نشاط يائس دفعت إليه دفعا .

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب فأثائه ينقل من مكان إلى مكان ويناله الإصلاح والتنظيف والترتيب ، ويؤتي إليه بأثاث لم يكن فيه ، بعضه مشترى تظهر عليه الجدة ، وبعضه مستعار يظهر عليه القدم ، كأنما تهباً الدار لاستقبال بعض الزائرين ، فهي تعد لهم ما يحتاجون إليه من الغرفات والحجرات ومن الأدوات والأثاث . والبستاني مسرف في الحركة مندفع في النشاط ، أراه هنا وأراه هناك ، وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه في النقل والتنظيف والترتيب . وسكينة تعمل معهم لا راضية ولا ساخطة ، لا مبهجة ولا مبتسمة ، وإنما هي تذهب وتجيء كأنها أداة لا تعرف الرضا ولا السخط ، ولا تحس الحزن أو الفرح .

وهذه الحركة المتصلة في بيت المهندس قد أثارت حركة فائرة متقطعة في بيتنا ! فهذا سرير ينقل ، وهذه وسائد تعار ، وهذه آنية تجمع ثم تحمل . وهذه ربة البيت تكلفني راضية باسمه أن أذهب إلى بيت المهندس فأعين الخدم على بعض ما يعملون ، وأن أشرف على التنظيم والتنظيف والترتيب ، وأن أعنى بأن تهباً الدار لاستقبال الزائرين تهيئة حسنة لا عيب فيها ولا نقص . ثم هذه ربة البيت تستعد في بيتها لتهيئة الطعام الذي سينقل إلى بيت المهندس إذا كان الغد ، ولإعداد الوليمة التي ستقام في دارها إذا كان اليوم الذي يليه .

وما أكاد أذهب إلى بيت المهندس وأخذ مع الخدم في العمل والحديث

حتى أعلم - وليتني لم أعلم - ، وأفهم - وليتني لم أفهم - أن أسرة المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان الغد لتقيم مع ابنها أياماً أو أسابيع ، وأن هذه الزيارة ليست كغيرها من الزيارات ، وإنما هي زيارة تتم لأمر يراد ، فستخطبُ بنت المأمور للمهندس الشاب ، وستشهد المدينة أفرحاً لم تشهدها منذ عهد بعيد ، وسيسمع أهل المدينة من ألوان الغناء ما لم يتعودوا أن يسمعوا من قبل ؛ فلن يقرأ عليهم المولد هذا المغنى المشهور الذى يقيم فى عاصمة الإقليم والذى يتعصب له أهل العاصمة وما حوفاً من القرى وما يجاورها من المدن . ولن يقرأ لهم المولد هذا المغنى الآخر الذى يقيم فى أقصى الإقليم نحو الشمال والذى يتنافس صاحبه أشد المنافسة ويتعصب له نصف الإقليم أو ما يقرب من نصفه . ولن يقرأ لهم المولد الشيخ مدكور هذا الذى يقيم فى المدينة نفسها ويحبه أهل الريف ، ولكن شهرته لا تتجاوز المدينة إلا قليلاً . لن يقرأ لهم المولد واحد من هؤلاء المغنين ، ولكنهم سيسمعون لغنى يأتى من القاهرة ، قد يكون عبد الحى ، وقد يكون الشيخ يوسف ، وقد يكون غيرهما من كبار المغنين . وستأتى العوالم من القاهرة ، وستأتى مغنية مشهورة لتطرب السيدات ، وستقام الزينة وتولم الولايم على أحسن طراز وأجمل شكل ، وسيأتى المنظمون لذلك والمشرفون عليه من القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم . وكان الخدم يفيضون فى ذلك ، ويجرون فى تفصيله مع هذا الخيال الربيعى الساذج الذى يحسب أنه يمضى أمامه إلى أبعد أمد على حين لا يزال فى مكانه لم يتجاوزه أو لم يكده يتجاوزه إلا قليلاً .

كانوا يفيضون فى الحديث عن المغنى والمغنية ، وفى الحديث عن الطهارة

الذين سيهثون الطعام ، وعن الفراشين الذين سينظمون الوليمة ويطوفون على الناس بالأطباق والأقداح ، وعن الموسيقى التي ستأتى من القاهرة فتقتضى فى المدينة يومين أو أياماً تُطرب الناس فى الصباح وتطرب الناس فى المساء ، وعن المدعويين الذين سيشهدون الحفل والذين يدعون إليه من قريب ومن بعيد، وفيهم البشاوات والبكاوات، وفيهم العلماء من شيوخ الأزهر . كانوا يفيضون فى هذا كله ، ويجدون فى الإفاضة فيه لذة يتعجلون

بها الحوادث ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وإبهاج . وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها ، وأعى أقلها وأهمل أكثرها ، وأفكر فيما لم يكن بدّ من أن أفكر فيه ، وهو أن هذا المهندس الشاب قد أغوى أختى ثم دفعها إلى الموت ، ثم أخذ يخونها وينتهك ما كان يجب ها عنده من حرمة ، ثم هو الآن ينظم الحياة تنظيمًا ، ويريد أن يأتيها ويقدم عليها ويمضى فيها جبهة باسم الدين والعرف والقانون .

نعم ! ولن تكون سكينه هذه الغافلة البلهاء التى لا أعرفها ولا تعرفنى إلا منذ حين ، لن تكون خليفة هنادى على بيت هذا الفتى وقلبه وجونه وإيمته ، ولكن التى تخلف هنادى على هذا كله ستكون خديجة ! خديجة أحب الناس إلىّ وأثرهم عندى وأحسنهم مكاناً من قلبى ، خديجة التى أجد عندها - وعندها وحدها - العزاء عما لقيت من شر وما احتملت من نكر وما ألم بى من مكروه ، خديجة التى أستعين بها على احتمال هذا الخطب الذى أصابنى فى أختى وفى أهلى ، هذه هى التى ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب ، ومن بيته ، ومن حياته كلها مكاناً ما ينبغى لفتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادى وأدت ثمنه

بذلك الدم الزكى الذى أريق فى ذلك الفضاء العريض !
 ولم أكن أسأل نفسى كيف يكون موقع هذا النبأ من نفس خديجة
 حين يلقي إليها: أنتكره وتضيق به ، أم تحبه وتبتهج له ؟ ولم أكن أسأل
 نفسى كيف تجد خديجة موفى منها حين أحاول أن أصدّ عنها حب هذا
 الرجل الآثم وأن أردّها عنه ، وأن أبذل فى ذلك من القوة والجهد
 ومن الخيلة والذكاء ما أملك وما لا أملك ؟

لم أكن أسأل نفسى عن شيء من هذا ، ولكنى كنت نائرة أشدّ
 الثورة وأعنفها ، مؤمنة أشدّ الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون ،
 مصممة أشدّ التصميم على ألا يكون مهما تهبأ له الظروف ومهما
 تتظاهر عليه القوى .

ثم لم أكن أسأل نفسى عن كل هذه الخواطر التى كانت تجيش فى
 صدرى وتبعث فى هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم : أكانت
 خواطر صادقة أم كانت كاذبة ؟ أكنت وفيّة لأختى بالعهد مشفقة
 على حقها أن يضيع ، حريصة على أن أحتفظ لها بهذا العاشق الخائن
 رغم أنفه ، مقاومة فى سبيل ذلك قوة الفطرة وقوانين الحياة ، أم كنت
 أتخذ هذه الخواطر حجة وتعلّة أخفى بها على نفسى ما لا أحب أن تظهر عليه ،
 وأستر بها دون قلبى ما لا أجد الشجاعة على أن أواجهه به فى صراحة
 وجلاء ؟

لم أكن أسأل نفسى عن شيء من هذا ، بل لم أكن أسأل نفسى
 عن شيء ما ، وإنما كنت أفنى قوتى وجهدى وتفكيرى فى أن أحول
 بين خديجة وبين هذا التدبير الذى يدبر وهذا الكيد الذى يراد . وكثيراً

ما كان يخطر لي أنى أحمى خديجة من شر عظيم ، وأحول بينها وبين خطر منكر ، وأقوم دونها أن يفترسها السبع أو يغتالها الذئب ، وأضن بها على أن تبتذل لهذا المحرم الآثم الذى لا يعرف حقاً ولا يرعى حرمة ولا يرجو وقاراً نخلق ولا دين . وكثيراً ما كنت أقدر أن قياى دون خديجة وحمايتها من هذا الخطر الذى يوشك أن يلم بها فرض يأخذنى به الوفاء لما بيننا من مودة ، والرعاية لما لها عندى من جميل . وكثيراً ما كان هذا كله يجتمع ويأتلف بعضه إلى بعض ويتمثل أمام نفسى مجتمعاً مؤتلفاً قد اتخذ من الوفاء والنصح والإخلاص زينة خلافة ، فإذا هو أمامى مرآة نقية صافية ، أنظر فيها فترد إلى صورة نفس كريمة عظيمة قد ارتفعت عن كل نقيصة ، وأصبحت مثالا للبطولة والشهامة والتضحية فى سبيل الأخت التى اغتالها الخطر ، والصديق التى يوشك الخطر أن يغتالها . ولو أنى حولت وجهى عن هذه المرأة بعض الشيء فى ذلك الوقت ، ولو أنى نظرت فى نفسى ولم أنظر أمامها ولا من حولها ، ولو أنى تعمقت قلبى وتبينت قرارة ضميرى ، لرأيت شرّاً يا له من شر ، ولشهدت هولاً يا له من هول ، ولعرفت أنى لم أكن أفى لأختى ولا لصديقى ، وإنما كنت أؤثر نفسى بما أراه خيراً وشرّاً ، وأتف هذه النار المضطربة المتأججة على نفسى وأحميها من أن يحترق بها أحد غيرى !

نعم ! ولكنى لم أكن أنظر فى نفسى ولا أحاول النظر فيها ، وإنما كنت مدفوعة إلى إفساد هذا الأمر الذى يدبر ، ومنع الأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذى كان لأختى منذ حين والذى يجب أن يكون لي بعد حين ، كأنما ورثته عنها بعد الموت !

والغريب أن هذه الخواطر المضطربة كلها لم تفسد من أمرى شيئاً ، ولم تغير من شكلي ولا من نظام حياتي الذي ألفه أهل الدار قليلاً ولا كثيراً . إنما كنت أصبح وأمسي ، وأذهب وأجىء ، وأعمل وأكسل ، وأنشط وأفتر ، كما رآني أهل الدار من قبل ، بل خيراً مما تعودوا أن يروني في الأيام الأخيرة . فقد ذهب عني الذهول ، وفارقني الوجوم ، واستقرت عيناى وهداأنا واستقامتا ، فليستا تضطربان ولا تقدحان الشرر أو ما يشبه الشرر ، ولا تنظران هذه النظرات التي كانت تخيف مني وتثير في النفوس من حولي شكناً وريباً وإشفاقاً . عدت إلى هدوء غير مألوف ، وانطلق لساني بالحديث ، بل تردد الابتسام على شفهي ، وأخذ الإشراق يترقق في وجهي من حين إلى حين ، حتى لم يشك أحد في أن هذا الفرح الطارئ قد شفاني مما كنت أجد ، وردّ إلى ما كان قد فارقتي من اعتدال المزاج .

ثم نُصِّبِح وإذا الزائرون قد أقبلوا ، وإذا النشاط المبتسم السعيد يملأ الدار جميعاً ، وإذا أنا أشارك من حولي في مظاهر ما يجدون من فرح وبهجة ، وأنفرد وحدي بلوعة لا تنقضي وحزن لا تخمد ناره .

يا لقوة النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا حد لها . يا لمكر النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار . يا لقدرة النساء على الكيد وبراعتهم في التلوين ونهوضهن بأنقل الأعباء وثباتهن لأفدح الخطوب !

لقد أكبرت نفسي ، بل أكبرت المرأة في نفسي حين رأيتني أضطرب في هذا التمثيل وكأني أضطرب في الحياة الواقعة لا بأخذني أحد

ولا آخذ نفسي بتصنع أو تكلف أو محاولة ، وإنما أنا أكذب وأنافق وأصطنع الرياء وأخفي ما أخفي وأظهر ما أظهر ، في سهولة ويسر ، كما أتنفس وكما أفتح عيني وأغمضها ، وكما آتي ما تدفعني الغريزة إلى أن آتي به من الحركات ! ومع ذلك فبعض ما عرض لي من الخطب وبعض ما ألم بي من الهم كان خليقاً أن يحول بيني وبين الحياة فضلاً عن الحياة الهادئة المطمئنة ، فضلاً عن هذه الحياة المضاعفة التي يملؤها الكذب ويجري فيها الرياء كما يجري الماء في الغصن الرطب .

١٧

وانتهى النبأ إلى خديجة ، كما تنتهى هذه الأنباء إلى الفتيات من بنات الطبقات الوسطى ، ظاهراً خفياً ، وواضحاً غامضاً ، يلقي إليها ويسر عنها ، تُنبأ به وترد عنه ، فتتهجج له نفسها وتستحجي مع ذلك من أن تتحدث فيه ، ويمتلئ له قلبها غبطة وسروراً ، ويفرض عليها الأدب مع ذلك أن تتكلف الكتابة والحزن كلما ذكر لها ، وأن تعرض بوجهها إعراضاً كلما هم أحد أن يشير إليه من قريب أو بعيد ، وأن تفرّ منه فراراً إذا كان الحديث فيه إليها صريحاً جلياً . على أن صديقي وإن تكلفت من ذلك ما يتكلفه أمثالها مع من كان حولها من أهل الدار ، قد آثرتني بما كانت تؤثرني به في كل شيء من هذه الصراحة الساذجة الحلوة ! فلم تخف عليّ ما كان يملأ قلبها من فرح وغبطة ، وما كان يغشى نفسها من قلق وإشفاق . وما أكثر ما تحدثت إليّ وما أكثر ما تحدثت

إليها في أمر الخطبة والزواج ، وفيما يحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور التي لا تحصى ولا تستقصى ! وما أكثر ما تحدثنا عن خطيبها المهندس وعمما نعرف وما لا نعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته وثروته ! وما أكثر ما أغرقنا في الأمل ومضينا مع الخيال ! وما أكثر ما فصلنا الأمور تفصيلا ، وأطلقنا الوقوف عند الدقائق والصغائر من الأمر ، فتحدثنا عن الثياب التي ستشترى ، وعن الحلى وعن الأثاث ، وأقمنا القصور وأتقنا إقامتها إتقاناً !

وأنا في هذا كله أجارى صديقي مجازاة يسيرة لا أتكلف فيها ولا أحاول حتى لم تشك لحظة في أنى أشاركها في أمر الخطبة والزواج كما كنت أشاركها قديماً في أمر اللعب ، وكما كنت أشاركها إلى أمس في الدرس والقراءة والاستظهار . بل نحن نتحدث فيما سيكون غداً أو بعد غد حين يتم هذا الأمر ، وحين تستقر خديجة في دارها وتصبح ربة بيت . ونتحدث في الدرس الذى لا بد من أن نمضى فيه ، وفي القراءة التى لا نستطيع أن ننصرف عنها ؛ ونرتب أمرنا على أنى سأنقل مع خديجة إلى حيث تكون ، وسأشاركها في حياتها مهما تكن الظروف . وما الذى يمنع من ذلك وما دخلت هذه الدار إلا لها ، وما عملت في هذه الدار إلا معها ، وما استطاعت في يوم من الأيام أن تقبل شركة أو ترضى من أهلها أن يكلفونى بما لا يتصل بها من الأمر ، كنت لها طفلة وكنت لها فتاة ، ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربة بيت .

نعم ! ما أكثر ما تحدثنا في هذا كله وأنفقنا فيه الساعات أثناء النهار حين كان من حولنا يضطربون فيما يضطرب فيه أهل الدار حين

تهياً لإقامة الأفراح ، وأنفقنا فيه الساعات أثناء الليل حين كان كل شيء من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذى تمتاز به ليالى الريف ! ولكن نفسى فى هذه الساعات كلها لم تكن هادئة ولا مطمئنة ، وإنما كانت نائرة جامحة . وكنت كثيراً ما أكف عن الحديث لأفكر فى هذا الشخص الغريب الذى يحتوى نفسين متناقضتين أشد التناقض : نفساً تبهج وأخرى تبتئس ، نفساً تعد وأخرى توعد ، نفساً تمضى فى الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضى فى تدبير ما يحزن وينفع .

وتنقضى الأيام الأولى ، ويكون اللقاء ويكون التزاور ، ويكون الامتحان لخديجة بالنظر والحديث ، ويدنو كل شيء من غايته ، ويستحيل الجو إلى الوضوح والحلاء ، وتنفس أهل الدارين فى جو كله سرور وغبطة وأمل ورجاء فى غد .

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذى تتكشف الأمور فيه عن نفسها ، وتصبح الخطبة فيه أمراً واقعاً يعرفه كل الناس ، وأنا مؤثرة للصمت آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط . ولكنى أجدنى فى ساعة من ساعات النهار وقد آذنت الشمس أن تنحدر إلى مغربها ، وانتشر فى الجو هذا الحزن الضئيل اليسير الذى ينتشر فيه مع الأصيل فيهدئ من نشاط النفوس ، ويخفف من وجيب القلوب ، ويلقى على الآمال المشرقة بعض الشحوب ، ويجرى فى الأصوات الفرحة نغمة لاتخلو من كآبة ، أجدنى فى ساعة من هذه الساعات مقبلة على ربة البيت ، حتى إذا بلغت غرفتها دخلت لا أستأذن ، ثم أغلقت الباب من دونى لا أستأذن ، ثم وقفت واجمة بين يدى سيدتى لا أقول شيئاً ، وإنما تنحدر

الدموع غزيرة على خدى ، وسيدتى تنظر إلى فى غير إنكار وفى غير لوم ، كأنها قد فهمت عنى ما أردت أن أقول ، وكأنها قد استجابت لدعائى ، فهى ترفق بى وتؤكد لى أنى لن أفارق خديجة ولن يحول بينى وبينها حائل ، وأنى سأنتقل معها حين تنتقل ، وسأسافر معها حين تسافر ، وسأقيم معها حين تقيم ، وأنى أحسن حظاً منها هى ! فهى مضطرة إلى أن تفارق ابنتها ، أما أنا فلن أفارق سيدتى وصديقى . . .

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه ، ولكنه لا يبلغ منى ولا يؤثر فى نفسى . فما لهذا الحديث أقبلت . وما حاجتى إلى أن أسمعه من ربة البيت وقد سمعته ألف مرة ومرة من خديجة ! ومضى استطاعت ربة البيت أن تفرق بينى وبين ابنتها فى جد أو لعب ! كلا ! لم أقبل لأسمع هذا الحديث ، بل لم أقبل لأسمع شيئاً ، وإنما أقبلت لأقول شيئاً ، وقد قلته فى صوت هادئ تبلى هذه الدموع المنحدرة المنهمرة . وكنت أقدر أنه سيقع من هذه المرأة موقع الصاعقة ، وأنى قد دخلت هذه الغرفة فى هدوء ولن أخرج منها إلا فى عنف واضطراب . ولكنى قد أتممت ما أردت أن أقول ، وانتظرت ثم نظرت ، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب والدهش . ثم هممت أن أنصرف خجلة مستخذية ، ولكنها وقفتنى بالإشارة وتركتنى لحظة لا تقول لى شيئاً ولا تلقى لى لفظاً ، ثم قالت فى صوت عادى متزن : وهل أنبأت خديجة من هذا بشيء ؟

قلت وقد أغرقت فى البكاء : كلا يا سيدتى ! وما ينبغى لنفسي خديجة الطاهرة البريئة أن يلحق إليها حديث هذا الإثم . ولولا أنى

أوتر خديجة وأوتر الأسرة كلها لما أنبأتك بشيء ، ولا أفضيت إليك
 بسر هذه الأسرة البائسة التي تعيش في بؤسها المظلم في أقصى الريف .
 قالت وقد نهضت إلى متناقلة : لا بأس عليك ! فلن يذاع
 سر أسرتك . ثم ضمتني إليها وقبلتني وهي تقول : لقد أنقذت ابنتي
 من شر عظيم .

١٨

قلت : نعم يا سيدتي ، قد أنقذت خديجة من شر عظيم ، ولكنك
 ترين معي أن لا مقام لي في هذه الدار منذ الآن ! فكل شيء يأمرني
 بالتحول عنها . قالت وقد أحسست في صوتها أنها مشغولة البال منصرفة
 النفس عما يمكن أن أبسط لها من حديث : وما ذاك ؟ قلت مقتصدة
 متعجلة مضمرة أني إنما أتحدث لأعتذر عما سأتى من الأمر : لم أعود
 يا سيدتي أن أخفي على خديجة شيئاً أو أكتُم من دونها سرّاً ، وما ينبغي
 بل ما أستطيع أن أبقى معها مستأثرة بعلم ما أعلم طاوية عنها مسعاى عندك
 وستعلم خديجة من غير شك أن هذا الأمر الذي بدئ فيه قد أهمل وعدل
 عنه ، وسيكون له في نفسها أثر حاد ، ما أشك في ذلك ، ولست آمن
 نفسي حين أحاول ما يجب عليّ من تسليتها وتعزيتها أن أبوح لها ببعض
 الحديث . والخير كل الخير في أن أتعجل الرحيل . وما دام الله قد قضى
 عليّ الشقاء فلا بد من الإذعان لما قضى الله . قالت : وأين تريدان أن
 تذهبي ؟ قلت : لا أدري ! وإنما يجب أن أذهب أولاً ، فأما إلى أين

فشئء سأسئبئنه بعد ذلك . . !

ولم يرتفع ضحى الغد حتى كنت بعيدةً عن دار المأمور قريبة منها مع ذلك ، ألحظ من كئب ما يكون بين هاتئ الأئرئ اللئئ لم تتصل بينهما الأسباب إلا لتقطع ، ولم تنشأ بينهما المودة إلا لتستحيل إلى عداء أو شئء يشبه العداء . ولم أجد فى ذلك مشقة ولم أتكلف فيه عناء ، وإنما تحولت من دار إلى دار ، وقضيت يوماً أو بعض يوم عند هذه المرأة الئى تحدثت عنها فى أول هذه القصة ، عند زئوبة تلك الئى عرفتها فى بيت العمدة وقصصت من حديثها ما قصصت .

أقبلت عليها نحو الظهر ، فألفئتها قائمة تكئل بعض ما تكئل من الحب ، وأمامها نسوة يشئرئ منها : هذه تشئرئ القمع ، وهذه تشئرئ الذرة ، وهذه تشئرئ الفول ، هذه تشئرئ نقداً ، وهذه تشئرئ نسيئة ، وزئوبة تحتكم فى هذه وتلك صائحة مسرفة فى الحركة ، لا يستقر لسانها فى فمها ، ولا يستقر وجهها أولاً يستقر ما يئختلف عليه من الصور والأشكال ، فهى عابسة حيناً ، وباسمة حيناً ، وهى تفعل بعئئنها وشفتئها وحاجبئها الأفاعئل وتدل بها على ما قد يعجز الكلام عن أن يدل عليه ، وهى تسب هذه جادة وتسب هذه مازحة ، وهى تلمح حيناً وتصرح حيناً آئر ، وهى تمضى فى ذلك والنسوة يسمعن لها راضئات عنها معجبات بها ، مشاركات لها فى بعض ما تقول وفى بعض ما تأتى من الحركات ، وأفراد من شباب المئبنة قد اجتمعوا غير بعئد ينظرون ويسمعون ، ثم يتبادلون فئما بينهم أحادئث فئها للعبابة والرضا ، وفئها اللذة والإعجاب .

فلما رأته زئوبة لم تنكرني ، ولكنها لم تغل في الترحيب بي ، وإنما نظرت إلى من الرأس إلى القدم ، ثم قالت في صوتها النحيف : ها أنت ذى تقبلين ! لقد بعد العهد بك منذ التقينا في بيت العمدة ، ولكني كنت أنتظرك ، وما شككت في أنك ستأتين إلى هذا البيت وستقومين مني هذا المقام . قلت : فهل أنباك الودع بهذا ؟ قالت : وما يدريك ! لعل الودع قد أنبأني من أمرك بما تعلمين وبما لا تعلمين . اصعدى إلى هذه الغرفة من فوقنا فتحفني من حقيبتك واستريحى ، فسأفرغ لك بعد حين ، ولا تتعجلى الطعام إن كنت جائعة فإن وقت الغداء لم يكن بعد ، وإن كنت أقدر من أمرك أنك لا تحفلين بالوقت فيما يتصل بالطعام ، فما أرى إلا أنك تأكلين في كل وقت . هذا شأنكن آتيا الفتيات تشغلن ببطونكن أكثر مما تشغلن بأى شيء آخر . ومن يدري ! لعلكن تشغلن . . .

فقطعت عليها حديثها بالانصراف عنها والتصعيد في السلم إلى الغرفة التى دلتى عليها ، ولكنها تبعتنى مع ذلك بالسخرية والدعابة ، وأخذت تقول : اهرى ، اهرى ، وجدى في الهرب ، إن أذنيك النقيتين البريتين لا تستطيعان أن تسمعاً لما ألقى من حديث . إنك تخافين من احمرار الوجه واضطرابه . لن تخدعيني وإن استطعت أن تخدعنى غيرى ؛ فإنك لتحبين هذا الحديث وتخوضين فيه وفي شر منه مع أترابك من الفتيات ، ولكنكن تتصنعن الحشمة وتكلفن الحياء . على أنها لم تمص في هذا اللغو إذ لم تأنس استماعى لها وانصرافى إليها فضت فيما كانت فيه من بيع وكيل ومن دعابة بالوجه واللسان .

وفرغت لى بعد ساعة ، فأقبلت على هادئة باسمة ، تسألنى عن أمى وأختى وأجيبها عن أسئلتها بما أريد ، فتصدق ما تصدق وتكذب ما تكذب ثم قالت : وأنت الآن تريدن العمل ، فأين تحبين أن تعملى ؟ وكيف تريدن أن تعيشى ؟ إن لك من جسمك هذا الجميل ، ووجهك هذا الوضى ، ومنظرك هذا الذى يسحر الشبان ويخلب عقول الرجال ، ما يكفل لك حياة فيها ثروة وغنى ، وفيها نعيم وترف ، وفيها لذة ومتاع ، وفيها تسلط وسيطرة واستخفاف وعبث بعقول الشباب والشيب . قلت مغضبة : دعينى من هذا الحديث ، ولست أريد منك شيئاً ، وما أقبلت أستعينك على شىء ، وإنما ألممت بك بحمية لك قبل أن أترك هذه المدينة فأنى عنها مرتحلة . قالت وقد أدارت عينها وأسبغت على وجهها شكلاً مضحكاً تملؤه السخرية ويشيع فيه التكذيب والاستهزاء ، وأرسلت من فمها شيقاً منكرأ أتبعته بشخير منكر ما أشك فى أن الشباب المجتمعين غير بعيد قد سمعوه فتضاحكوا له ، وانتهى إلينا ضحكهم حيث كنا ، فزادها مرحاً ونشاطاً ، وملاأنى خزيأ واستحياء ، قالت : لا تُراعى لا تراعى ، فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفاً ، ولن أكرهك على ما لا تحبين ، ولكنى أعرض عليك ما عندى . فأنت تكرهين هذه البضاعة أو تظهرين كرهها الآن ! فعندى غير هذه البضاعة ، ولكن ثقى يا ابنتى أنك راجعة إلى فطالبة منى ما ترفضين الآن . لست الأولى ولن تكونى الأخيرة . . . تريدن عملاً كله جد كهذا الذى كنت فيه عند المأمور ، فلم تركت بيت المأمور ؟ ولكن هذا من أسرارك ، وإن لم يكن للفتيات أمثالك على أمهاتهن من أمثالى سر ؛ فقد أحب أن

أعلم من أمرك جليه وخفيه لأوصى بك عن علم . أخرجت سارقة ؟
 أم خرجت لسوء العشرة ؟ أم خرجت للكذب ؟ أم خرجت لكثرة الصباح ؟
 أم غضبت سيدك ؟ أم أغضبت سيدتك ؟ أم أغضبت بنت المأمور ؟
 أم أغضبتهم جميعاً ؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت ؟
 وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين أو بيتين كبيت المأمور ؟ وأنت
 تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للأفراح واللبالي الملاح ،
 وتترلين عما كان يحق لك أن تطمعى فيه من العطايا والهبات ! فليس من
 شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة . وليس من شك في أن كثيراً
 من النقد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك ، فكيف
 تركت هذا كله ؟ أتركته راضية ؟ ولماذا ؟ أم أكرهت على تركه ؟ ولماذا ؟
 تكلمى ! إني لا أحب الغموض ، ولا أطمئن إلى الأسرار ، ولا خير في
 التمتع والإباء والكتمان ، فما تخفينه اليوم سأظهر عليه غداً وسأظهر عليه
 قبل أن تغيب الشمس ، ولست بزنوبة إن خفيت على أسرار فتاة مثلك
 لم تبلغ العشرين ، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأخبار
 الأسر التي تقيم فيها أو تفد عليها أو ترحل عنها ما أعلم . تحدثنى ! كيف
 خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه ؟

وأمام هذا السيل المنهمر من الحديث ، وأمام هذه الأسئلة الملحة
 وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار ، لم يسعنى
 إلا أن أنهض وأعمد إلى حقيبتى فأحملها وأمضى نحو السلم ، ولكنى لم
 أكد أبلغه حتى رددت عنه رداً ، وحتى كانت حقيبتى قد خطفت منى
 خطفاً ، وحتى كانت زنوبة قد أحاطتني بذراعها المنكرتين ، وأخذت

تلحّ عليّ بالضم والتقبيل تهدئني وترضاني ، وأنا لذلك كارهة أشدّ الكره ، وعلى ذلك ساخطة أشدّ السخط ، ولو استجبت لنفسي لصحت مستنجدة طالبة الغوث ؛ فقد أخذت أمقت نفسي وألومها ، وألعن هذه اللحظة التي خطر لي فيها أن آوى إلى دار هذه المرأة ربّما أهينُ أمرى بعض الشيء وأدبر لي عملاً أمضى فيه .

ولكن زنوبة ملحّة عليّ بالرفق والملاطفة ، وقد خفت صوتها وعذب حديثها ، وأخذت تتحدث إليّ بأمر ليس بينها وبين ما كنا فيه صلة ، كأنها عرضت عن كل ما من شأنه أن يسوعني أو يروعني أو يقلقني عن هذه الدار التي اقتنعت زنوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامي أياماً أو أسابيع . ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتاً غير قليل في حديث هادئ فيه الجدل وفيه الهزل ، وإذا أنا آنس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحس من عطفها ، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت في هذه الساعات يسيرة قد زال منها التكلف ، وإذا نحن قد تغدينا معاً ، وإذا كل واحدة منا قد أخذت تتحدث إلى صاحبها في شيء من السداجة والثقة غريب ، وإذا نحن نستحضر آلامنا وأحزاننا ، وإذا كل واحدة منا تستكشف في صاحبها من وراء هذه الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صور البؤس وتمثالا مستتراً من تمثيل الشقاء ، وإذا كل واحدة منا ترثي لصاحبها أو تتخذ الرثاء مظهرًا من مظاهر الرثاء لنفسها ، وإذا نحن نشترك في البكاء ونتعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين في الضحك ونستبق إليه . ولم يكد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى كانت الألفة بيننا قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذي يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن

احتفظ بشيء من الاحتياط . . فلم أظهر زنوبة على سرى ، ولكنى
أنبأها بأن أختي قد قضت في الغرب ، وزعمت لها أنى إنما خرجت من
بيت المأمور فى إثر مغاضبة كانت بينى وبين الخدم ، ثم لم أظفر بما
كنت أرانى أهلاً له من الإنصاف . وقد سمعت منى ما أقول وهى إلى
التكذيب أقرب منها إلى التصديق ، ولكنها تجنبت الجدال والإلحاح فيه ،
وأظهرت الرثاء لى والعطف على ، ووعدتني بأنها ستجد لى عملاً شريفاً
مريحاً إذا كان الغد ، وألحت على فى أن أقضى الليل معها وقد فعلت ،
وقد أنفقنا جزءاً غير قليل من الليل فى مثل ما أنفقنا فيه النهار . فلما
أصبحنا غابت عنى ساعة أو نحو ساعة ، ثم عادت إلى مهللة مشرقة
الوجه وهى تقول : لقد وجدت عملاً ما أشك فى أنه سيرضيك . ستعملين
حيث كانت تعمل أملك قبل أن ترحلن عن المدينة فى بيت فلان ،
أتذكرين اسمه ؟ أتعرفينه ؟ إنه رجل من أصحاب الرثاء واليسر ، وقد
لا تجددين فى داره مثل ما كنت تجددين فى دار المأمور من الترف ،
ولكنك ستجددين عنده سعةً ويسراً ، ودمائةً فى الخلق ، وتبسطةً فى
المعاملة ؛ فزوجه كريمة النفس ، وبناته صالحات لم يفسدهن الذهب إلى
المدارس ولا استقبال المعلمين . فهذا الرجل أمير يضمن بيناته على هذا
الفساد ، ويرسل أبناءه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصيروا فيما
بعد موظفين كباراً كالمأمور والقاضى والمهندس . وإذا أقبل الصيف وعاد
هؤلاء الشبان من القاهرة امتلأ البيت فرحاً ومرحاً ، وأصبحت أيام
الأسرة كلها أعياداً ، وازداد حظ الخدم من الرغد والسعة ولين العيش .
وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ

أعوام وأعوام ، وقد ربيت أبناءها وبناتها ، وقد تبينت منهم واحداً بعينه هو الآن شاب نجيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً ، وهو يعرف لى هذا الحق ويحبنى ويكرمنى ويؤثرنى بالخير والمعروف ، قلت : وكيف تبينته ؟

قالت وهى تضحك : أتجهلين هذه العادة ؟ لقد أخذته حين كان وليداً فأدخلته من بين ثوبى وبينى ، أدخلته من جيبى وأخرجته من تحت ذيلى ، فأصبحت كأنى والدته ، وأصبح لى عليه حق الأمهات وله على حق الأبناء . ستعملين فى هذا البيت وسترضين ، وسأراك كل يوم إذا أصبحت وسأراك إذا أمسيت ؛ فليس بين هذا البيت وبيننا إلا خطوات ، وأنا أعمل فيه ساعات من نهار . وقد تحدثت عنك إلى ربة البيت فعرفتك وعرفت أمك وأختك وقبلتك راضية مسرورة ، فهلم بنا فقد تركتها على أن أعود بك إليها بعد لحظات . ولست أخفى عليك أنها كرهت بعض الشيء استخدامك بعد أن خرجت من بيت المأمور لما بين الأسترين من مودة ، ولكنها لم تطب نفساً عن تركك عرضةً لما يتعرض له الفتيات من الشر بعد أن عرفت أمك وحمدت عشرتها . فهلم بنا فقد تتاح لنا أوقات طوال يكثر فيها بيننا الحديث .

ونهضت معها وليس فى نفسى ريب فى أنها قد نصحت لى وأخلصت فى النصيح والود ، وفى نفسى بعض الأمل فى أنها ستعيننى يوماً ما على تحقيق ما أريد .

وأقبلت معها على بيت من بيوت الريف هذه التي يظهر فيها الثراء ،
ويحس أهلها سعة العيش ، ولكنهم على ذلك لا يأخذون من ترف
الحضارة إلا بأيسره وأهونه ، محتفظين بما ألفوا من هذه الحياة الريفية
التي لا دقة فيها ولا رقة ولا افتنان في إرضاء الذوق ، والتي تكره النظام
وتنفر منه ، وترى في الترتيب والتنسيق تكلفاً وجهداً لا خير فيهما ولا
حاجة إليهما . بيت من هذه البيوت التي لا يكاد يدخلها الداخل حتى
يحس أن أهلها ميسورون ولكنهم فلاحون كما يقال ؛ فالمتاع كثير ولكنه
مهمل مضطرب لم ينظم ولم ينسق ولم يهيا ، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر
فيها كما استطاع أن يستقر .

والفرق فيها ملغى أو كالملقى بين حجرات الاستقبال للسيدات وحجرات
الاستقبال للسادة ، بل بين حجرات الاستقبال وحجرات الطعام ،
إنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسي ، ويأكل أهل
الدار حيث يتنق لهم أن يأكلوا ، إلا أن يطرقهم طارق أو يلم بهم ضيف
فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال ، ثم يكون نوم الطارق أو الضيف
حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً .

في البيت مقاعد وكراسي ، ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على
هذه الحصر والأبسطة قد ألقىت على الأرض إلقاء . فإذا طرق الطارق
أو أقبل الضيف عرفت الكراسي والمقاعد أن لها في البيت منفعة وعملا .

والفرق ملغى أو كالملقى بين من فى الدار من الناس وما فى الدار من الحيوان على اختلافه ؛ فالدجاج مطلق يمضى حيث يشاء ويستقر هنا ثم يستقر هناك حاملاً معه أقداره وآثاره ، ولا يحمى منه إلا حجرة أو حجرتان ولا تحميان إلا فى مشقة وتكلف للجهد . وقد لا يكره أهل الدار إذا اشتد القبض أن ينفقوا منسأهم تحت السماء قريباً من البقرة أو الجاموسة أو ما إليهما ، يطلبون النسيم حيث يجدونه ، لا يتكلفون فى ذلك ولا يتصنعون ، ولا يجدون فى مخالطة الحيوان حرجاً ولا أذى . هى الحياة السهلة اليسيرة الغنية همت أن تتحضر وأن تترف ، فأخذت من الحضارة والترف بحظ ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكنت بما أخذت ، ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه .

ولم أكد ألقى ربة البيت ومن حولها بناتها وخادمتها يعملن وتعمل معهن ، يتحدثن وتشاركهن فى الحديث ، حتى أحسست أنى سأجد فى هذه الدار راحة وتعباً ، وسألقى فيها نعيماً وبؤساً . وقد صدق حمى ، فنعمت فى هذه الدار وشقيتُ : نعمت بهذه السذاجة التى ردتنى إلى شىء يشبه حياتى فى أقصى الريف ، وخلطتنى بأهل الدار كأنى واحدة منهم ، وألغت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت تلغيه . ولكن أى حياة يموت فيها العقل أو يأخذها شىء كالموت ! لم آسف على ما فقدت من الترف ، ولعلى لم آسف على ما فقدت من صحبة خديجة ؛ فقد استيأست من صحبتها واتخذتها - سواء أردت أم لم أرد - لنفسى خصماً ، حاربتها وإن زعمت أنى كنت أدافع عنها ، وظلمتها وإن زعمت أنى أنقذتها ، وانتصرت عليها وإن زعمت أنى

لم آسف لما فاتني من صحبتها فلم يكن من ذلك بدءاً ! ولكن أي أسف وأي حزن وأي لوعة وحسرة ، وأي ندم يذيب القلب ويملا النفس كآبة ويأساً هذا الذي كنت أجده إذا أصبحت وأمست وقضيت الليل والنهار بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه للقلب !!

أين القراءة مع خديجة ، وأين القراءة منفردة ؟ أين هذه الكتب العربية وهذه الكتب الفرنسية التي كنت أنفق معها أكثر النهار وشطراً من الليل قارئة أو متحدثة عما قرأت أو متمنية لاستئناف القراءة ؟ لقد تركت هذا كله في بيت المأمور ، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله أحد ، إلا رب البيت ، فإنه يقرأ إذا أصبح ، ويقرأ إذا أمسى ، وأنا أسمع في الصباح والمساء . وأكاد أحفظ عنه ما يقرأ . وما يعني مما يقرأ ! إنما هي أوراده وأدعيته . ودلائل الخيرات . وأين أنا من هذا . وأين هذا مني !!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أستصحب كتاباً . وما كان لي أن أستصحب كتاباً ، وإنما كانت كلها كتب لخديجة . ولقد سألت نفسي ألف مرة ومرة : أين يمكن أن أظفر بهذا الكتاب ؟ فليس في هذه المدينة من مدن الريف كتب تباع إلا هذه التي يعرضها الطوافون في أيام السوق أو في يوم الخميس من كل أسبوع . يعرضونها في السوق ويمرون بها على الدور ، وليس لي فيها أرب ولا منفعة . إنما هي قصص لا تعجبي ولا تروفي وسحر لا أحسنه . وصلوات دينية لا أعرف منها قليلاً ولا كثيراً .

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والجلد الأنيق ، هذه التي تأتي من القاهرة والتي كنت أجد اللذة والمتاع حين أخذها في يدي أو حين أنظر إليها ؟ أحيل بيني وبينها آخر الدهر ؟ أقضى على أن أرد كما كنت فلاحه من بنات الريف تنفق نهارها في هذا العمل الآلي الذي لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من النبات والحيوان ؟ كلا ... !

هؤلاء فتيان الأسرة قد أقبلوا من القاهرة ، وقد رأيتهن يفرغون حقائبهم . فما أكثر ما رأيتهن يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام المختلفة المتباينة ، منها الضخم ومنها النحيف ، منها متقن الطبع ومنها ما أهمل طبعه إهمالا ، منها ما جلد في عناية وما ترك على حاله التي خرج بها من المطبعة ! ولكن أين منى هذه الكتب ؟ وكيف السبيل إلى النظر فيها ؟ بل كيف السبيل إلى الوصول إليها ؟ هنا حدثتني نفسي بما لم تحدثني به قط ، فأنكرت حديثها بعض الشيء . ولكني لم ألبث أن عرفته وقبلته واطمأننت إليه ثم صممت عليه تصميما . وأى بأس في أن أختلس الكتاب اختلاسا فأنظر فيه وقتاً طويلا أو قصيراً ، ثم أردته إلى مكانه لم يمسه بأس ولم يصبه مكروه ؟ أسرقة هذه ؟ ألا ثم هذا الذي أنا مقدمة عليه ، إن وجدت إلى الإقدام عليه سبيلا ؟ والله يشهد ما سرفت ولا فكرت في السرقة ، وما اختلست ولا فكرت في الاختلاس إلا هذه المرة . والله يشهد ما لمت نفسي على ذلك ولا أشفقت عليها من تورط في الإثم أو تعرض للعقاب ، وإنما قضيت أسابيع غريبة فيها مهارة لم أكن أعرف لنفسى منها حظاً . وفيها خوف وإشفاق .

وفيهما بين ذلك لذات لن أنساها . فكم خدعت أهل الدار ، وكم تغفلتهم ، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأخفيته بيني وبين ثوبي ، ثم انحزرت به إلى حيث اتخذت لنفسى مأمناً لا أخشى أن يُعثر عليّ فيه ، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقى عليه نظرات طوالاً أو قصاراً تغريني به أو تصرفني عنه ، وأنا أجد لهذه المخادعة ولهذا الخوف ول هذه القراءة لذة غيرت حياتي تغييراً وكادت تصرفني عن هذه الخواطر التي كانت تصاحب نفسي وتملأ قلبي وترسم أمام عيني بيت المأمور وبيت المهندس صورة خديجة وصورة هذا الشاب . نعم ! كادت هذه الحياة الجديدة تصرفني عن هذا كله ، لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح المساء على سادتي في ليلة من هذه الليالي : سمعت حديثاً عن المأمور اضطربت له نفسي واضطراباً ، ولولا أني أنفقت جهداً عتيفاً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدي ما كنت أحمله من آنية ؛ فقد نقل المأمور من المدينة إلى مدينة أخرى في أقصى الأرض مما يلي البحر ، وكان هو الذي طلب هذا النقل وسعى فيه وتوسل إليه بفلان وفلان . والناس يهيمسون بأنه إنما فعل ذلك ليفر بابنته من جوار المهندس الذي كان قد خطبها ثم قطعت الخطبة . والناس يختلفون ، فمنهم من يرى أن المهندس هو الذي قطع الخطبة لأشياء بدت له ، ومنهم من يزعم أن المأمور هو الذي رفض الخطبة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب .

سمعت هذا واضطربت له ، وكظمت عواطفي وأكرهت نفسي على التزام الأمن والهدوء ما اضطرت إلى الخدمة ، فلما أتيح لي العزلة

أرسلت نفسي على سجيّتها فقضيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة محزونة . ولكن الصباح لم يسفر حتى أسفر معه للنفس أمل لا يخلو من حزن ولكنه أمل على كل حال ، من أجله أفسدت الأمر على خديجة ، ومن أجله خرجت من بيت المأمور ، ومن أجله نفيت نفسي في هذه الدار . فقد خلا الجوى في المدينة ، وأصبح من الممكن أن تتصل الأسباب بيني وبين هذا المهندس الشاب ، وأصبح من الممكن بل أصبح مما لا بد منه أن يكون الصراع بينه وبينى ، فليعلم بعد وقت قصير أو طويل أذهب دم هنادى هدراً أم لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظفر له بالتأثر ويشفى نفسه بالانتقام ؟ ...

٢٠

وقضيت بعد ذلك أسابيع حائرة أشد الحيرة ، مرتبكة أعظم الارتباك ، تضطرب الحواطر في نفسي وتختلف وتردح دون أن أقدر على تنظيمها أو أجد لى منفذاً منها إلى هذا الخاطر الذى كنت أطلبه وألح في طلبه وأريد أن أطمئن إليه . فلم يكن بد من أن أتصل بخدمة هذا المهندس الشاب ، ولم تكن السبيل إلى ذلك ميسرة ؛ فأنا عاملة في هذه الدار لا أجد من أهلها ما يزعجنى عنها أو ما يضطرنى إلى فراقها ، وسكينة عاملة عند المهندس ، لا تجد منه ما يؤذيها ، ولا يجد منها ما يصرفه عنها أو يزهده فيها .

وكنت أجهد نفسي أثناء هذه الأسابيع إجهاداً شديداً متصلاً

أتمس مخرجاً لي من هذه الدار ومخرجاً لسكينة من تلك ، وأريد مع ذلك أن أجنب الشر والإساءة ما وجدت إلى اجتنابهما سبيلاً . وكثيراً ما سمعت سادتي يتحدثون أثناء الغداء أو أثناء العشاء عن مبادلة يسعى فيها أكبر أبناء الدار وكان موظفاً في إقليم بعيد ، وكان يريد ويريد أهله أن ينتقل إلى المدينة التي نحن فيها ليعيش بين أهله سعيداً موفوراً ، فكان يسعى في أن يبادل موظفاً في المدينة ليأخذ كل منهما مكان صاحبه . وكان التراضي قد تم بينهما بعد أخذ ورد وبعد سعي وإلحاح ، وكان السعي متصلاً في أن ترضى الحكومة عن هذه المبادلة ، وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة ويبعد حيناً آخر ، وكان رب البيت وربته يحرصان على تحقيق هذا الأمل أشد الحرص ويكثران الحديث فيه ، وكانا يتصوران ابنهما وقد عاد إليهما بعد طول الغربة في أقصى الصعيد ، وكانا يهشان له في أحاديثهما غرفته وينظمان فيها الأثاث ويذكران ما يجب أن يشتري من المتاع ، ويتحدثان بما سيتغير من نظام الدار إذا أقبل هذا الشاب الذي تعلم في المدارس وتعود حياة الترف والنعيم ، والذي يتكلم الفرنسية ويتأنق في اللباس ، ولا يأكل كما يأكل أهل الدار جالساً على الأرض إلى هذه المائدة المنخفضة ، عليها هذه الصينية النحاسية البيضاء في الأيام العادية ، وعليها تلك الصينية الصفراء التي لم تكن توضع حتى يسرع إليها الصبيان والشبان يتكفون قراءة ما كان عليها من بعض النقوش قبل أن يرص الخبز عليها رصاً فيخفي هذه النقوش إخفاء .

نعم ! ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل الدار ، وإنما كان

يصطنع هذه الأدوات - التي يصطنعها المترفون . وكان سيد البيت وسيدته يتحدثان بذلك منكرين له بأطراف ألسنتهما معجيين به أشد الإعجاب في قلوبهما . وكان الشبان من أبنائهما يسمعون أحاديثهما هذه ويعرفون سخطهما الظاهر وإعجابهما الخفي ، فييسمون صامتين ما أقام أبوهم ، فإذا انصرف لشأنه امتلأت أفواههم بالضحك وانطلقت ألسنتهم بالدعابة ، وأمهم تسمع لهم وتنظر إليهم ، منكرة عليهم بطرف اللسان معجبة بهم في أعماق القلب . وكنت أنا أسمع الأحاديث كلها فألحوبها وأطيل التفكير فيها . فهل من سبيل إلى أن تم بين سكينه وببي مبادلة كهذه التي يراد أن تم بين ابن هذه الدار المنقى في أقصى الصعيد وهذا الموظف القبطي المنقى في أدنى الأرض ؟ !

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المبادلة ؟ بل كيف السبيل إلى عرضها على سكينه أو التحدث إليها فيها ؟ بل كيف السبيل إلى تعليق هذه المبادلة لسكينه ؟ وما الذي يزعجها عن منزلها هذا الذي تطمئن إليه وتسود فيه لا تكاد تدعن لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما يلقاه الخدم من السادة ؟ ما الذي يزعجها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التي لا حظ لها من ترف والتي ليس فيها هذا المهندس الشاب ؟ وهب سكينه حنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف ، فكيف يكون تعليق ذلك لسيدها ؟ وكيف يكون تعليق ذلك لسادتي ؟ كلا ! هذه أحلام ليس إليها من سبيل . ومهما أجتهد ومهما أحاول فإن الشر لا ينال إلا بالشر، والإثم لا يدرك إلا بالإثم، ولن أبلغ هذه الغاية التي أسمو إليها حتى أقتحم في سبيلها غمرات

وأقترف في سبيلها آثاماً .

لا بد إذن من بعض الشر ، ولا بد من أن أمكر حتى أقصى عن هذه الدار ، ومن أن أكيد حتى تقصى سكينته عن بيت المهندس الشاب . وما أسهل المكر حين تهباً له النفس ! وما أيسر الكيد حين يطمئن إليه الضمير ! ومتى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد ؟! لن أجد في تحقيق ما أريد جهداً ولا مشقة إذا رضيت نفسى ما لا بد من أن ترضاه من الشر ، واستباححت ما لم تكن تستبيحه من الإساءة والإيذاء .

فأما سكينته فأمرها ميسور . وإنما هي زيارة للبستاني وإغراء له ببعض المال ، واتفق معه على أن يفسد الأمر على هذه الفتاة ما وسعه ذلك ، حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأخرجت سكينته من الدار سعى إلى زنوبة من قبل سيده يلتبس خادماً ، ويومئذ ...
وأما مخرجى أنا من هذه الدار التي أعمل فيها فليس أيسر منه ولا أهون . لقد دخلت الدار ولم تكن في حاجة إلى ، وإنما قبلني أهلها رفقاً بي وعطفاً على وإحساناً إلى ورعاية لعهد أمى . فأنا عندهم ضيف ، أستطيع أن أرحل متى شئت ، وأستطيع أن أقيم ما أحببت . على أن ظروف الحياة لم تضطرنى إلى أن أتكلف الاستئذان في الرحيل والتماس العلل والمعاذير ، وإنما قضت بأن أخرج من هذه الدار إخراجاً وأنبذ منها نبذاً . وإنى لأذكر قصة ذلك الآن فأبسم لها ابتساماً ملؤه الحنان والحب . وكثيراً ما ذكرت هذه القصة قبل اليوم فامتلاً قلبي جباً لهؤلاء الناس وحناناً إلى هذه السذاجة التي كانوا يعيشون فيها والتي

كانت تصور لهم أمورهم كلها في صورة الجلد الذى لا يشبهه جد ،
والتي لا يتحدث بها الناس في هذه الأيام إلا ضحكوا منها ساخرين
إن كانوا قساة القلوب ، وابتسموا لها عاطفين إن كانوا يقدرون الذكرى
ويحبون الحياة التي لا تكلف فيها ولا رياء .. !

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التي أقبلا
بها من القاهرة ، يقرءون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرفهم عنها شيء .
وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيبيطون ، وكثيراً ما كان إبطاؤهم
يغضب أباهم ويملؤه بهم إعجاباً ولم حياً . وكان أهل الدار جميعاً ، وربها
أولم ، مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على
هذه الكتب حياً للعلم وإيثاراً للدرس وجداً في التحصيل ، وكانوا
يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفهم العمل طول
العام الدراسي في القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم
لذة الرياضة والاستمتاع بشيء من النعيم . وإنما هي الكتب إذا أصبحوا ،
وهي الكتب إذا أمسوا ، وهي الكتب إذا آن لهم أن يقيلا بعد الغداء .
ما أشد فتنه العلم هؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب
وبأخذون منه بأعظم الحظ ، ويريدون أن ينبغوا فيه وأن يظفروا
بالشهادات في غير إبطاء ، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاضون
المرتبات في آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم !

وكان أهل الدار يجلدون في هذه الأحاديث لذة ، ويطلقون
خيالهم فيها إطلاقاً . وكانت سيدة الدار تتمثل هذا كله وتتوسل في
تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الدعاء الساذج اليسير الذى تجرى به

السنة أمثالها من أهل المدن والقرى ، وتكثر في الوعد بالنور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولى .

وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بنشاط أبنائه وعكوفهم على الكتب أكثر النهار وشطراً من الليل ، حتى لقد كان يغيظ أصحابه ويملاً قلوبهم حسداً ، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملاً قلبها خوفاً من الحسد والحاسدين . وكان هذا الرجل الطيب الكريم يجد لذة في أن يختلس الوقت من حين إلى حين وينتزه الفرصة التي يغيب فيها أبنائه عن هذه الغرفة التي رصت فيها الكتب رصاً فينسل إلى الغرفة انسلاً كأنه اللص ، ويقف أمام هذه المائدة أو هذه الموائد التي نظمت عليها الكتب تنظيماً ، ويلقى على هذه الأسفار نظرات ملؤها الإكبار والإجلال ، وقد يمد يده في تحفظ واحتياط إلى هذه الكتب فيمسها مساً رقيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً ، كأنه يتبرك بها ويلتمس عندها ما يلتمسه عند الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار قبورهم أمواتاً .

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلفه بها وحاجته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة ، فيأخذ كتاباً منها وينظر فيه ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم ، أو ليقرأ فيه سطرأ أو أسطرأ يفهمها أو لا يفهمها ، وهو يؤثر فيما بينه وبين نفسه ألا يفهمها ، فذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعاناً فيما ينبغي للعلم من الغرابة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء ، وهو أدنى إلى ما ينبغي من الإعجاب بهؤلاء الشبان الناشئين الذين يعرفون ويفهمون ويسمعون ما لا يعرف

آباؤهم ولا يفهمون ولا يسبقون . وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل ميلاً فيه كثير من الحياء والتردد إلى أن يحدثه أبناؤه ببعض ما يقرءون ويعطوه شيئاً من هذه الكنوز التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ولكنه كان شقيماً دائماً لا يكاد يلح لأبنائه ببعض ذلك حتى يجد منهم فوراً وازوراراً ، فيضطر إلى الصمت والرضا بما هو فيه من جهل وحرمان . وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه ببخل العلماء وضمنهم بالعلم وإيثارهم أنفسهم بلذاته وثمراته ، يتحدث بذلك متألماً محزوناً أو ثائراً مغضباً ، فتعزیه زوجه وتهدهه وتزعم له صادقة أو متكلفة أن العلماء إنما يبخلون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفاقاً على الجهلاء من أن يشق عليهم ما يسمعون ، فيقبل منها ذلك أو يجادلها فيه .

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكتبهم بمكان الإعجاب والتقدير من هذه الأسرة الساذجة . ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب ، وفسد فيها أو كاد يفسد كل شيء ، وقضى أهلها يوماً منغصاً كله شر ويأس ، وأمل خائب وظن كاذب . وكنت أنا مصدر هذا البلاء ، فكفرت بخروجي من الدار عما جنيت من سيئة ، وما كان أسعدني بهذا الخروج ! ..

ولم أكن أقل من صاحب البيت كلفاً بالانسلال إلى غرفة الكتب والنظر إليها والقراءة فيها ، بل كنت كما قدمت أتجاوز حظ صاحب البيت من هذا كله فأختلس الكتب اختلاساً وأخفيها بيني وبين ثوبي ، وأخلو إليها في حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول ، ولكنها كانت تمتلي دائماً باللذة والمتاع . وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المنظر قبيح الشكل ، ردىء الطبع والورق ، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً متصلاً ،

يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشتد اختصاصهم فيه ، ثم ينهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت معلوم . فدفعت إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتبين ما يخفيه شكله الديميم وطبعه الرديء وورقه الحقيقير وجلده المبتذل البالي ، من هذا السحر الذى خلب هؤلاء الشباب ودفعمهم دفعاً إلى الهالك عليه والتنافس فيه . وكثيراً ما التمسث هذا الكتاب فلم أجده قريب المثال بين هذه الكتب المرصوفة المعروضة ، فتبينت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون من النظر فيه حتى يخفوه إخفاء . فلم يزدنى ذلك إلا كلفاً به وتتبعاً له وإلحاحاً فى البحث عنه . وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعون إلى الغداء ، وأن الغرفة ستخلو لى ساعات من نهار ، وأنى سأستطيع أن أبحث عن هذا الكتاب ، وقد أقسمت لأجدنه ولأنظرن فيه ولأقضين معه أطول ما أستطيع أن أقضى معه من الوقت .

وقد انصرف الشبان إلى وليمتهم ، وتخففت من أثقال ما كان على من عمل ، فانسلت مسرعة رشيقة سريعة النشاط إلى الغرفة ، ومضيت فى البحث غير قليل ، وإذا أنا أظفر بما كنت أبتغى . فباللهجة وباللغة ، وباللغة وباللغة ! هذا الكتاب بين يدي دميم الصورة قبيح الشكل حقير الورق رديء الطبع ، ولكن اسمه « ألف ليلة وليلة » . وأنا أقرأ فيه وأنا أمضى فى القراءة ، وأنا أنسى نفسى وأنسى مكانى . ولكن ماذا أسمع وماذا أرى ؟ هذا باب الغرفة يفتح فى غير احتياط ، وهذا رب الدار يدخل ! فقد كان مثلى ينتظر أن تخلو له الغرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار ، ولينظر إليها نظرة التقديس ، ولحمد إليها يده ملاطفاً مداعباً ، ثم ليقراً من أسمائها وسطورها

ما يبهر به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار . ولكنه يراني أنظر في كتاب ،
 وفي كتاب لم يتعود أن يراه ! فهو يسألني ماذا أصنع ، وما أنا وهذه
 الكتب ؟ وأحاول أنا أن أخفي الكتاب الذي كنت أنظر فيه ، ولكنه قد
 أسرع فأخذه من يدي ، ثم زجرني زجراً عنيفاً وطردني من الغرفة طرداً .
 على أنه لم يطل المقام في هذه الغرفة وإنما خرج منها بعد قليل
 ثائراً ساخطاً ، وأقبل على زوجته وفي يده هذا الكتاب فألقاه في وجهها
 إلقاءً ، واندفع في غضب لا حد له وفي شتم لا ينهى
 ساخطاً على زوجه المسكينه وعلى أبنائه البائسين ، صاباً عليها نذراً
 متصلة بالكوارث والأحداث ، معلناً إليها في غيظ عنيف مرة وفي حزن
 أليم مرة أخرى ، خيبة أمله في هؤلاء الأبناء الذين كان يظنهم محبين
 للعلم مؤثرين له مهالكين عليه ، فإذا هم أصحاب عبث وهو ومجون ،
 وإذا هم ينفقون وقتهم في قراءة هذا الهذيان . ومن يدرى ! لعلهم ينفقون
 وقتهم في هذا أثناء إقامتهم في القاهرة على حين يظن هو أنهم يجدون
 ويعملون ويحصلون العلم . وهو إذن إنما يجرد ويكد وينفق حياته وماله
 ليخصي أبنائه في هذا السخف وفي هذا اللهو الآثم القبيح . وهم لا يضيعون
 وقتهم وجهدهم وجد أبيهم وكده وماله وأمله فحسب ، ولكنهم يخربون بيت
 أبيهم بأيديهم كأنهم يجهلون أن هذا الكتاب لم يدخل بيتاً إلا خربه تخريباً .
 ثم يعود الرجل إلى غرفة الكتب فيقلب كل ما فيها تقليباً ، وما
 يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها ، ثم يعود بها منتصراً
 ساخطاً معاً ، ثم يمزقها تمزيقاً ، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار !
 وقد نعص يوم الأسرة كله فلم يذق الرجل ولا أهل الدار فيه طعماً .
 وعاد الفتیان آخر النهار ، فلا تسل عما سمعوا ولا عما رأوا ، ولا

عن صمتهم حين صمتوا ولا عن قولهم حين قالوا . ولكن النتيجة الأولى والأخيرة فيما أظن لهذا كله هي أني طردت من الديار طرداً . ورجعت إلى بيت زنوبة وإلى غرفتها ، فقضيت فيها أسابيع أنتظر ما يجرى به القضاء ، وما تنهى إليه حيلة البستاني الذي ضوعف له الأجر .

٢١

« ستعملين إذا كان الغد يا آمنة ، وستعملين عملاً يرضيك كما لم يرضك عمل من قبله قط . لا تذكرى بيت المأمور ، ولا تذكرى بيت فلان هذا الذى دفعتك الحماقة فيه إلى هذا الذنب العظيم . ستعملين عملاً مريحاً فيه مال كثير ، ونعيم كثير ، ومتاع كثير . ستعملين . . . ستعملين وستسعين . ليتنى كنت مكانك ، ليت سنى تعود إلى حيث أنت من العمر . ستعملين وستسعين . . ! »

قالت ذلك وهي مضطربة أشد الاضطراب ، مبهجة أشد الابتهاج ، يدفعها الفرح والمرح إلى أن تأتي حركات مختلطة فيها الرقص والقفز ، وفيها الجذ والهزل ، وفيها الدعابة التى ليس بعدها دعابة والمجون الذى ليس بعده مجون . حركات على الوجه ، وحركات باليدين ، وحركات فى الجسم كله مجتمعاً وفى أعضائه متفرقة . حركات هى إلى الجنون والاختلاط أدنى منها إلى الفرح المعتدل الذى يصدر عن نفس مرحة وعقل متزن . ولم تكنف زنوبة باضطرابها هي ، وإنما انقضت على انقضاضاً ، فقبلتني وأنهضتني وراقصتني ودارت بي حول الغرفة دوراناً متصلاً سريعاً حتى انتهت بي وبنفسها إلى السقوط ، كل ذلك وهي مندفعة فى حركاتها وأحاديثها ، لا تمكننى من أن أقول كلمة أو أنطق

بحرف أو آتى من الحركات غير ما تريد . قد استحالت إلى جنية وأصبحت الغرفة ميداناً لاضطرابها المختلط الذى لم يقف ولم يهدأ إلا حين أسقطها الدوار وأسقطنى معها على الأرض وحين أفأقت منه بعد قليل . . . هنالك استطاعت أن تتكلم كلام العاقلة ، واستطعت أن أسمع لها وأن أفهم عنها ، فعلمت أن المهندس فى حاجة إلى خادم ، وأنه قد أرسل يتقدم إليها فى أن تلتبس له هذه الخادم ، وأنه يمنحها على ذلك أجراً يختلف باختلاف الخادم التى تقودها إليه مع الصباح إذا كان الغد . وهى مبهجة لى وهى مبهجة لنفسها ؛ فما أكثر ما قدمت لهذا الشاب من خدم ! وما أكثر ما تقاضت منه أجر ما قدمت ! ولكنها لم تقدم إليه يوماً من الأيام فتاة مثلى ، لها مثل ما لى من جمال الوجه ، واعتدال القد ، ورجاحة العقل ، ومهارة اليد ، والعلم بحاجات الشبان المترفين . سيكون أجرها مضاعفاً ، أما أنا فأسأعد السعادة كلها فى هذا البيت الأنيق الجميل ، وفى خدمة هذا الشاب المترف الغنى الوحيد . لن تأمرنى سيدة الدار ، ولن ينازعنى خادم الدار . سأكون وحدى صاحبة السلطان المطلق على بيت هذا الشاب وعلى قلبه إن أحببت ! فقلبه مباح لمن يحسن الوصول إليه والاستيلاء عليه .

قالت ذلك وأرسلت شبيقتها المرتفع ، وشخيرها المنكر ، وضحكها العالى ، ثم انقضت على وضمتهى إليها ضمناً عنيفاً وهى تقول : « لى لأغبطك وأحسدك معاً . أغبطك لأنى أحبك ، وأحسدك لأنى أود لو أكون مكانك وأظفر بالسلطان على ما يحتوى هذا البيت من نعم » . وأنا أسمع منها وأبسم لها وأرفق بها ، فلا أنبئها بأنى قد دبرت لهذا اليوم تدبيراً ، وأعددت له إعداداً ، واشتريته بالمال ، وانتظرت مقدمه واثقة

بأنه سيقدم ، مطمئنة إلى أنه سيحين . ولم أظهرها على هذا كله ،
وأمرى كله في حاجة إلى الحزم وفي حاجة إلى المكر والكيد .

نعم ! لم أنبئها من هذا كله بشيء ، ولم أنبئها حين أصبحنا بأنى
لم اذق النوم لحظة في هذه الليلة الطويلة التي فرقت بين نفسيين ، وإنما
قضيت الليل كله يقظة ، أفكر في أمس البعيد وأفكر في اليوم ،
وأفكر في غد وفيما بعد غد ، على حين كانت تحلم بما باعت وما ستبيع
من حب ، وبما أخذت وما ستأخذ من أجر ، وبما ذاقت وما بقي لها
أن تذوق من هو ، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها
إلى أن يأتي حركات مختلفة تلائمها ، وتدعو لسانها إلى أن ينطق بجملة
متقطعة مختلفة توافقها . وكنت أرى ذلك منها وأسمعه ، فأرثي لها وأرثي
لنفسى أيضاً : أرثي لها في حياتها هذه الصغيرة الحفيرة التي خلت من
كل حس دقيق ، أو شعور عنيف ، أو تفكير عميق . وأرثي لنفسي
من حياتي هذه المضطربة التي يملؤها الحس والشعور والتفكير ، وتفعمها
الأحداث والخطوب .

نعم ! قضيت الليل كله مؤرقة . وليس من شك في أنه كان طويلاً ،
وليس من شك في أنه كان ثقيلاً لو فرغت له ، ولكنني شغلت عن الليل
بينات الليل . شغلت عن طول الليل وثقله بصورتك أيها الأخت العزيزة
البائسة هذه التي لم تكد تحس أني خلوت إلى نفسي حتى تراءت لي ،
ثم دنت إلى ثم استقرت مني غير بعيد ، ثم أخذت تتحدث إلى نفسي
حديثاً أعقله ولا أسمعه ، وأجد له في قلبي وقعاً لاذعاً حلواً معاً . صورتك
هذه التي رأيتهما كما كنت أراها حين ذهبنا إلى الغرب ، وكما كنت
أراها في بيت العمدة قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئاً ولا تلتفت

إلى شيء ، وكما كنت أراها حين كنت أنبهك إلى نفسك وإلى مكاني
منك ، وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك ، وحين كنت أواسيك
وأعزبك وأجهد في أن أفيض عليك السكينة وأشيع في قلبك الأمن والهدوء .
ها أنت ذى تسمعين إلى وتجلسين إلى جانبي ، وهذا رأسك قد مال
حتى استقر على كتفي ، وهذه يدي تلاطف خدك وتبلها دموعك المنهمرة
الصامتة . وها أنا ذى أخلى بينك وبين البكاء حيناً وأمضى معك فيه ،
ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه . وهذه يدي تلاطف شعرك الغزير
ملاطفة متصلة حتى يملكك الأمن ويوشك النوم أن يضم عليك ذراعيه .
ولكنك تهضين وتذهبين . ثم تعودين لي بعد قليل واجمة ثم مروعة ،
وأنا أستقبلك رقيقة بك مهلثة لك . وهذه الأشباح الحمراء تترأى
لنا كما كانت تترأى لنا في بيت العمدة قبل أن نأخذ في هذا السفر
الأثيم ، ولكنك لا تكادين ترين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيمي
وتنهضي إليها ، وتستحيل إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء !
وها أنتن أولاء تظفن بي وتضطربن من حولي وتستبقن إلى أذني تردن
أن تلقين فيهما ألوان الحديد . وها أنا ذى مروعة مفعجة ، أرى الجنون
وأشفق منه وأهم أن أصبح ، وأذكر مكاني في دارنا تلك في أقصى
الريف نحو الغرب أثناء العلة . وها أنا ذى أرى ينبوع الكريه يتفجر
منه ذلك الدم الغزير . وها أنا ذى أنهض خائفة موهة ، أريد أن أفر
من هذه الغرفة ، ولكن إلى أين ؟ !

نعم ! إلى أين والليل ساكن جاثم ؟ وأين تستطيع فتاة مثلي أن تذهب
والليل ساكن جاثم ؟ لأوقظن هذه المرأة التي تختلف عليها الأحلام
وتنعم بلذة النوم في ناحية من نواحي هذه الغرفة . لأوقظنها ولأقضين

معهما بقية الليل في الحديث . . . ولكنى لا أكاد أسمى إليها حتى تأخذنى الأشباح الحمراء من كل مكان ، وحتى تسعى إلى أختى وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة ، وهى تلقى فى نفسى هذه الكلمات التى تقع منها مواقع السهام المحرقة : لاتوقظيها إنها تخيفنا ، وإن يقطبها تطردنا ، ماذا تخافين منا ؟ لقد طالما ألفتنا وألفناك ، أفنسيتنا إلى هذا الحد ؟ ! كلا ! كلا ! لم أنسكن ولن أنساكن ، ولن أذودكن عن نفسى ، ولن أوقظ هذه المرأة التى تخيفكن . أقمن معى ، أطفن بى ، تحدثن إلى ، فن يدري ! لعلى أن أكون فى يوم من الأيام واحدة منكن ، لعلى أن أكتسى هذا الرداء الأحمر القانى الذى تكتسبينه والذى يدعونى إليكن ويخيفنى منكن . . . !

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يحمله إلى الهواء من بعيد فيبلغنى نحيلاً ضئيلاً ، ولكنه على ذلك يشيع فى سكون الليل كما يشيع الضوء فى الجو . . .

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يدنو منى شيئاً فشيئاً فيماؤنى أمناً ودعةً وهدوءاً ، وحزناً معاً . إنه يردنى إلى اليقظة الخالصة التى تشعر بنفسها وتفكر فى نفسها وتذكر ما مضى على علم به وتقدير له ، وتستقبل ما سيأتى فى روية وبصيرة واستعداد للاحتمال . . .

نعم ! إن صوتك ليلاً أذنى ، وإنه يمسأ قلبي ، وإنه ليغمر نفسى . وإنى أفهم عنه ما يريد ، وإنى لأذكر أختى ومصرعها ، وإنى لأعرف من دفعها إلى الموت ، كما أعرف من أذاقها الموت . وإنى لأعلم حق العلم أنى ساعية إذا كان الغد إلى بيت هذا المهندس فقيمة فيه حيث كانت أختى . فناهضة بما كانت تهض به أختى

من العمل ، فنتهيبة بعد إلى شئ آخر غير الذي انتهت إليه أختي
في ذلك الفضاء العريض . . .

لقد سمعت منك أيها الطائر العزيز ، وفهمت عنك ، وهذا عقلي
يثوب إلى ، وهذه قوتي ترد على ، وها أنا ذى أنتظر الصبح لأسعى إلى
هذا المهندس وإن قلبي لمظلم أشد الإظلام ، وإن وجهي لمبتسم أجمل الابتسام .

٢٢

وأقبل سيدي الحديد على مبتسماً راضياً يحدق النظر في وجهي تحديقاً
طويلاً ، ثم يفصل النظر إلى جسمي كله تفصيلاً ، كأنه يمتحن متاعاً
يريد أن يشتريه . ولو قد استطاع لنهض إلى فاختبرني بيديه اختباراً
وتعرفني باللمس ، ولكنه كان فيما يظهر قد احتفظ لنفسه ببقية من حياة ،
فاكتفى بهذه النظرات المتصلة الطوال التي تجرد المرأة من ثيابها تجريداً ،
والتي كنت ألقاها مضطربة لها أشد الاضطراب نائرة لها أشد الثورة .

ولكني كنت أتمالك ما وسعني الجهد وضبط النفس ، حتى لا يرى
على اضطراباً ولا ثورة ولا شيئاً ينكره . وهو يسألني عن اسمي ، وعن
أهلي ، وعن أمري كله ، فألفق له من ذلك ما ألق ، وأزين له من
ذلك ما أزين . وهو يسمع مني مصدقاً لي أو غير حافل بما يسمع ،
إنما يريد أن يعرف صوتي ووقع حديثي . ثم هو يأمرني أن أقبل وأن
أدبر ، وأن أدنو وأن أبعد ، وأن أنحرف إلى يمين وأن أنحرف إلى
شمال ، وأنا أستجيب لكل ما يدعوني إليه . وقد هدأ اضطرابي وسكنت
نفسي ، وعادوني صوابي ، وأنا أتحدث إلى نفسي بأن هذا الفتى يعرف
حقاً كيف يكون شراء الرقيق . . !

ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أني سألقاه قائمة باسمه . أقبل إلى في ظلمة الليل يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص . ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح ، حتى أخذه شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض جعل يأخذ لونه الطبيعي قليلاً قليلاً : ماذا ؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أتعلمين أين أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثيه ، وما كان ينبغي لي أن أنام قبل أن ينام سيدي ، فما يدريني ! لعله يحتاج إلى شيء .

قال وقد عاد إليه ثباته وهدوء نفسه ، واسترد صوته شيئاً من قوته المألوفة ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتظرة لمقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت أن أرى من سبقك في خدمتي . وكنت أقدر أني سأجد في إيقاظك بعض الجهد ، فلست أدري ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات ! قلت : فقد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل في دورهم ؛ فليأمر سيدي بما يزيد . قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلى يداً وددت لو استطعت قطعها ، ولكن تراجعت حتى لا تبلغني : فإن سيديك يأمرك أن تنبيهه . ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في أثره . . . وصدق المسكين أني كنت أنتظره . ولو قد نفذ إلى قلبي واستمع إلى أحاديث نفسي لعرف أني لم أكن أرقه في انتظاره ، وإنما كنت أسامر أشباحاً حمراء لو رآها الملى قلبه رعباً ولولوى منها فراراً . ولكن لم ير إلا إيائي ، ولم يفكر إلا في . وما له وللأشباح الحمراء !

وعدت إلى غرفتي بعد ساعة ، راضية عن نفسي كل الرضا ،
مطمئنة إلى قوتي كل الاطمئنان ، فقد بلوت الحصم ولقيت العدو في
ميدانه الذي اختاره هو ، وكانت بيني وبينه مقدمات النضال ، فلم
أضعف له ، ولم أشفق منه ، وإنما ثبت له ثباتاً ، ثم انصرفت عنه
وقد علقته بين السخط والرضا ، ووقفته بين اليأس والأمل . لم أجد في
شيء من هذا كبير مشقة ، ولم أحتمل في شيء من هذا عظيم عناء ،
وإنما هو الابتسام المطمع المغرى ، والاحتشام الذي يفل العزم ويثبط
الهمم ، ويبسط سلطان الحياء على النفس فإذا هي تتردد بعد امتدادها ،
وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشراقه .

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عنيفة بماؤها الهول ،
ويحرق بها الخطر ، وتنتهي إلى الفصل فيما يكون بيني وبين هذا الشاب
فإما ضعف واستئثار ، وإما قوة وانتصار ، يتبعهما الطرد العنيف من
هذه الدار . ولكنني ملكت أمري وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة
الأولى مقدمة لا خاتمة ، وما أجل الفصل في هذه الخصومة إلى أجل
ظنه قريباً ورأيته بعيداً . وقد انصرفت عنه بعد أن أعتته على بعض أمره
وهيات له ما يحتاج إليه ، وتركته كاسف البال يظهر الرضا والابتهاج ،
وهو يقول : لا بأس ! إنك في حاجة إلى التربية والتمرين .

ولم أكد أثوب إلى غرفتي وأغلق بابها من دوني إغلاقاً محكماً حتى
تراءت لي أختي وهذه الظلال التي ترافقها ، كأنما كن ينتظرنني ليعلمن
علمي وليسمعن نبأ ما أبليت مع الحصم من بلاء . ولقد هممت أن

أتحدث إليهن ، وأقص عليهن ما سمعت وما رأيت ، وما عملت وما آبيت .
ولكن ماذا ؟ إنهن ينظرن إلى نظراً قصيراً ، ثم يلمعن في وجوههن الشاحبة
ابتسامة الرضا ، ثم يستخفين استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً .
وكنت أظن أني سأنتظر معهن مطلع الفجر ، سامرة كما كنت أسمر
منذ حين قبل أن يرقى إلى سيدي كأنه اللص ، ولكني ألتسهن من
حوالي فلا أرى لمن محضراً ولا مظهراً ، وألتسهن في نفسي فلا أظفر
مهن بشيء . لقد غبن عن عيني وغبن عن نفسي ، وكأنهن أمرن
الذكرى أن تتبعهن وتمضي إلى حيث مضين . فأنا أريد أن أذكر
فلا أستطيع ، وأريد أن أفكر فلا أجد سبيلاً إلى التفكير ، وأنا آوى
إلى مضجعي وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه . ولكن للقوة البدنية حداً ،
ولكن للتعب سلطاناً هو بأسطه ، وغاية هو بالغها . ولقد قضيت ليلة
لم أذق فيها النوم ، وهذه الليلة الثانية قد انقضى أكثرها ، وكادت توالى
نجمها تتغور ، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أرضيت أم كرهت . . .

ومن أجل هذا فارقتني أيتها الأخت العزيزة ، وفارقتني معك هذه
الظلال الحمراء . إنكن لرفيقات بي شفيقات على . وما يمنعكن من
ذلك وأنا عندما تُردن ، لم أهين ولم أضعف . ولم أنهزم لهذا العدو
الماكر القوى ! ليت شعري ! أكنتن ترفقن بي ، وتشفقن عليّ ،
وتنصرفن عني وتخليين بيني وبين النوم ، لو أني خالفت عن أمركن
واستجبت أو أظهرت الاستجابة لذلك الدعاء البغيض الذي كان يرسله
إلى سيدي بالعين واليد واللسان ؟ !

على أن الأمر بين سيدى وبينى لم يلبث أن تعسر بعد يسر ،
وتعقد بعد سهولة ، واشتد بعد لين . فلكل شيء أجل ، وللصبر أمد
ينتهى إليه ، وللمطاوله غاية تقف عندها ، والمياسرة خير إلا أن تستحيل
إلى ضعف وإذعان . وما ينبغي لسيدى أن يظهر مظهر الضعيف
المذعن لخادم مثلى ليس لها حول ولا طول ، وهى لا تأوى إلى ركن
شديد ، ولا تعتر بقوة تحميها من بأسه وتعصمها من سلطانه ، وإنما
هى كلمة منه تبقىها فى داره عزيزة مكرمه أو تخرجها من هذه الدار
ذليلة مشردة . وقد علق سيدى هذه الكلمة فى طرف لسانه أياً وأياً ،
بهم بأن يرسلها حتى إذا بلغت شفثيه وكادت تتجاوزهما إلى الهواء الذى
يحملها إلى رُدت إلى مكانها واستقرت فى موضعها من طرف اللسان
استقراراً وأطبقت شفثاه من دونها إطباقاً .

ومُدت لى أسباب البقاء فى هذه الدار يوماً أو بعض يوم ربّما
يخرج سيدى لبعض شأنه ، ثم يعود فيدعوفى إلى ما كان يدعوفى إليه
فى هذا الإلحاح المتصل ، المضحك المحزن ، الذى يفسد على الرجل
أمره ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر ، عزيزاً كأنه السيد
وذليلاً كأنه العبد ، ويطلق لسانه بما شاء له الهذيان من هذه الكلمات
الجوفاء التى يماؤها الاستعطاف حين تكون نذيراً ووعيداً ، وبماؤها
المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاء ، وتصور دائماً تقيض
معانيها الظاهرة ، وتعتبر دائماً عما لم يُرد صاحبها إليه ، ويملاً نظراته بهذا
الشرر المحرق حيناً ، ثم بهذا الانكسار الدليل حيناً آخر ، ويعمله يدور
حول غايته التى يشبهها وأمنيته التى يتغيها ، كما يدور العابد حول

الصنم ، وكما يدور اللص حول البيت يتغنى ثغرة ينسل منها إليه !
نعم ! كذلك كنت ألتى سيدي مع الصبح باسمه مشرقة الوجه ،
أحمل إليه قدح الشاي وبعض الفاكهة قبل أن يثب من سريره . وقد
كان سيدي يحيا حياة الإنجليز ، فلا أكاد أدخل عليه حتى ترتفع إلى
عيناه وقد ملأتهما عواطف شديدة الاختلاف ، ومعان عظيمة التناقض ،
فيها الحب وفيها البغض ، فيها الأمل وفيها اليأس ، فيها الوعيد وفيها
الخوف ، فيها الشهوة وفيها الزهد ، فيها القرب وفيها البعد . وأنا أرى
هذا وأحسه وأفهمه ، ولكن ؛ يا لقوة النساء ! إني لأقبل عليه بالشاي
والفاكهة والتحية كأني لا أرى شيئاً ، ولا أحس شيئاً ، ولا أفهم شيئاً ،
ثم أنصرف عنه وفي نفسي ما فيها من الرضا ، وفي قلبي ما فيه من الإشفاق ؛
فقد كنت راضية عن نفسي وساخطة عليها ، وقد كنت شامطة في
سيدي ومشفقة عليه ، وقد كنت أرضى لنفسي ما أنا فيه من الإطماع
والامتناع ، ومن القرب والبعد ، لأعذب هذا الشاب الذي قتل أختي
وكنت أنكر على نفسي هذا كله ، وأراه لعباً بالنار ، وتكلفاً للشر ،
وإمعاناً في الإثم . وقد كنت أرى أني قد خلقت لنفسي جواً من الرذيلة
أعيش فيه إذا أصبحت ، وأعيش فيه إذا أمسيت ، وأنفوس هواءه
المنكر ، وأبعث فيه سماً زعافاً . فما هذا الكيد الذي أكيد به ؟ وما هذا
المكر الذي أمكره ؟ وما هذا التفكير الآثم الذي أملاً به رأسي وقا بي ؟ !
أصبح فأفكر في هذا الشاب لأغويه وأضنيه وأنقص عليه يومه ، وأمسى
فأفكر في هذا الشاب لأدنيه وأقصيه وأورق عليه ليله ؛ وأنا فيما بين
ذلك لا أنفك أفكر فيه ، عاطفة مرة ، وصادفة مرة أخرى ، لينة
حيناً وقاسية حيناً آخر ..

هذا كثير ! وأكثر منه أن تفرغ له فتاة كانت تستطيع أن تفرغ
لها هو أطهر منه وأتقى ، وأكثر من هذا وذلك أن يستسلم هذا الشاب

لما يغمره من ضعف ، ويتورط فيما يبث حوله من شباك ، ويتعلق
 بفتاة مهما تكن فهي ليست شيئاً ، والفتيات غيرها كثير يستطيع
 أن يلتمسهن متى شاء وكيف شاء . وأى شيء أيسر من أن يرسل
 بستانيه إلى زنوبة أو إلى امرأة أخرى من أشباه زنوبة ، فلا ينقضي
 اليوم حتى تكون عنده فتاة أو فتيات يختار من بينهن من يشاء ! فما
 أكثر هؤلاء الفتيات اللاتي يلتمسن العمل في المدينة قد نشأن فيها أو
 انحدرن إليها من الريف كما انحدرت أنا منذ أعوام ؛ ولكن نفس الإنسان
 ضعيفة حقاً ، وقوية حقاً . لقد أقبلت على نفس سيدي كما أقبلت
 على غيري تلتمس عندي الحب ولذاته وآثامه ، فلما وجدت مني امتناعاً
 عليه وصدوداً عنه ونفوراً ملحاً منه ، أعرضت عن الحب ولذاته وآثامه ،
 أو أرجأت الحب ولذاته وآثامه وتعلقت بي أنا ، تريد أن تقهرني وتغلبني
 على أمري وتنتصر على ، وتظفر مني بما تريد .

فسيدي لا يطلب عندي الآن حباً ولا لذة ولا إنمأ ، وإنما يطلب
 إلى خضوعاً وإذعاناً واستسلاماً . هو يريد أن ينتصر لا أن ينعم .
 ومن يدري ! لعله إنما يؤجل إقصائي عن داره حتى يتم له النصر ،
 ويتحقق له الفوز ، فيخرجني ذليلة صاغرة قد آمنت له وأذعنت
 لسلطانه ! ويكفي أن يخطر لي هذا الخاطر وإذا أنا مثله متعلقة بالعناد ،
 ملححة في الحصام ، قد نسيت الانتقام أو كدت أنساه ، وأعرضت
 عن أختي وظلالها الحمراء أو كدت أعرض عنهن ، ولم أتمثل إلا عدواً
 يريد أن يقهرني ، ولا بد من أن أقهره ، وسيداً يريد أن يسطر سلطانه
 على ، ولا بد أن أبط سلطاني عليه .

وكذلك اتصلت حياتي في هذه الدار هادئة في ظاهر الأمر
 مضطربة أشد الاضطراب وأعظمه نكراً في حقيقة الأمر . ألقى سيدي
 باسمه ويلقاني باسماً ، ثم لا يتصل اللقاء بيننا حتى يستحيل الابتسام

إلى عبوس ، والرضا إلى سخط . وإذا هو يدعو فآني ، ويلج في الدعاء فألج في الإباء ، ويغري فأرتفع عن الإغراء ، وينذر فأستخف بالندير ، ويستعطف فأقسو على الاستعطف .

ثم - يا للهول ! - ماذا أرى؟ وماذا أسمع؟ وماذا أجد؟ هذا سيدي ماثلاً بين يدي يتلطف ويترفق ثم يستعطف ويستجدي ، ثم هذا هو جاثياً بين يدي كأنه يتقدم إلى الصلاة ، ثم هذا هو باكياً في صمت ، ثم هذا هو مجهشاً بالبكاء ، وما أنا ذى أكاد أضعف ويكاد يأخذني الإشفاق لولا أن أجمع قوتي كلها ونفسي كلها وأدعو إلى أختي وظلالها الحمراء أتمس بمنهن العون ، وأستمدهن قوة إلى قوة .

وأمضى بعد ذلك فيما كنت فيه من إباء ، ثم ينهي الأمر بيننا إلى شيء يشبه المواعدة ، وإذا أنا قد أخلصت له ولنفسي ، وإذا هو قد أخلص لي ولنفسه ، وإذا نحن نتحدث في هدوء وأمن واستقرار . فأما هو فقد استيقن اليأس وعجز عن احتمالها ، وأما أنا فأهون عليه الأمر مخلصاً صادقة وأزين له الانصراف عنى إلى من أحب وما أحب من الخليلات والخدم واللذات ، وإذا نحن نتفق على أن نفرق ، وإذا هو ينصرف عنى على ألا يرانى في الدار إذا عاد إليها . وأنا أقبل ذلك راضية عنه سعيدة به ؛ فقد سئمت هذه الحرب وضعفت عن هذه الخصومة ، وكرهت هذه الحياة التي تملؤها المطاولة والمحاولة ، وتثقلها المهاجمة والمقاومة ، وقنعت من الغنيمة بالإياب أو بشيء خير من الإياب . فسأخرج من الدار ظافرة بعض الشيء . أليس قد عجز هذا الشاب الجميل الوسيم المترف الغنى القوي أن يبلغ منى ما يبلغ من أمثالي ؟ أو لست أخرج من هذه الدار وقد جرعت مرارة الهزيمة وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء !؟

ولقد انصرف عنى هادئاً وقد أظهر الرضا ، وفرغت لأمرى أتياً للرحيل
 مزمنة ألا أرى زنوبة ولا ألهاها هذه المرة ولا أقم في المدينة ولا أعود إلى
 أقصى الريف ، وإنما آخذ قطاراً من هذه القطارات التي تمضي إلى
 الشمال نحو القاهرة ، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم ، فأرض
 الله واسعة ورزق الله ميسر لمن ابتغاه . وها أنا ذى قد خزمت أمرى
 وجمعت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج . ولكن البستاني موكل
 بالدار يمنعنى أن أخرج منها ويحول بينى وبين الباب ، ويتبني بأن سيده
 أتى إليه أثناء انصرافه أمراً حازماً صارماً أن يحول بينى وبين الطريق ،
 وأن يتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع بمسكنى في الدار حتى يعود .
 وإذا فلم يكن جاداً حين اتفق معى على أن نفرق . وإذا فلم يكن هادئاً
 حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضا ، وإنما كان ما كراً
 مخادعاً . ومن يدرى ! لعله كان صادق العزم خالص الرأى ، فلما
 انصرف عنى تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن
 يرسل هذه الفتاة ولما يخضعها لما أراد .

وقد استيأست أو كدت أستئس من ذلك الخاطر الذى كان
 يعيننى أول الأمر على المقاومة أو يغرينى بها أو يدفعنى إلى الإغراء
 والإطماع ثم إلى الإباء والامتناع ! فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب
 فى أرباب . إنه يشبهنى كما اشبهى غيرى من الفتيات ، وإن امتناعى
 عليه قد زاده حرصاً على وتعلقاً بى . ولست أكذب نفسى فكثيراً
 ما سألتها : أترى شهوته قد استحالت إلى هجب ؟ أما الآن فأنا مستيقنة
 أنه لا يحببى ، بل لم يحببى قط ، وأنه لا يشبهنى ، ولعله يزدربنى ،
 وإنما يريد أن يقهر فى عدوياً متمرداً وخصماً عنيداً ؛ فلاألقي البأس
 بالبأس ، ولاألقي العناد بالعناد .

وما كان أيسر الحرب لو أتى رغبة فى الحرب أو فكرت فيه .

لكنى كنت أريد أن أترك الدار جهرة لا سرّاً ، وعلى علم منه لا على جهل . ومن يدري ! لعلى لم أكن أحب أن أترك الدار ، وإن كان هذا الخاطر لم يعرض لى ظاهراً جلياً . وهو يعود مع المساء ، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء ؛ وينفق ليله كله فى الدار لا يسمر ولا يلتقى أصحابه . ومن يدري ! بم كان أصحابه يعلنون انقطاعه عن السمر وإيثاره للعزلة . ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئاً ظاهر الرضا ، ويلقانى كما انصرف عنى مبتسماً فى كآبة ، وهو يسألنى : أما تزالين هنا وقد فارتكتك على ألا ألقاك إذا عدتُ ؟ !

— أجل ! فارتقتى على ألا تلقانى ، ولكنك أمرت خادمك ألا يخلى بينى وبين الطريق .

— ومن زعم لك هذا ؟ لقد كذبتك الخادم ، وما أرى إلا أنه حريص على بقائك ، كاره لفراقك ؛ ومن يدري ! لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه والاتصال به فهو الذى سماك لى ، وهو الذى أنبأنى بمكانك ، وهو الذى جاء بك إلى هذه الدار . لى إذن لأحمق ؛ لقد خدعنى هذا البستانى ، ولقد اتخذ دارى مسرحاً للهواه وهواه . فأنت إذن لا تعرضين عنى ولا تتمتعين على إيثاراً للشرف واستبقاء للعفاف ، فقد ذهب الشرف منذ زمن بعيد وضاع العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تقبلى على هذه الدار . وفى سبيل من ذهب الشرف ؟ وفى سبيل من ضاع العفاف ؟ فى سبيل هذا البستانى الذى تهوينه ، وما أشك فى أنه يهواك .

وكان هادئاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث ، حتى لم أكن أشك أنه كان عابثاً متكلفاً يلتمس الوسيلة إلى استئناف ما بيننا من الخصام . ولكنه لم يكذب يمسى فى حديثه حتى أخذ هدوؤه يفارقه شيئاً فشيئاً ، ولم يكذب ينتهى إلى غايته حتى كان غضباً كله ، وشرّاً مستطيراً يتمثل إنساناً يتكلم ويتحرك ، ذاهباً جائئاً متهبئاً للبطش لا يكاد يمنع عنه

إلا في جهد شديد .

على أنى لقيت عنفه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما قدم إلى من ألوان العنف واللين ، ومن ضروب السخط والرضا ، ثابتة مطمئنة ، وقلت له في هدوء : لا بأس عليك ! خلّ بيني وبين الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أتجمعي بالبستاني جامعة ، أو تصلني به صلة . فلئن خليت بيني وبين الطريق لآخذن أول قطار ، ولولا أن أشق على مولاي وأكلفه مالا يتكلف السادة للخدم لعرضت عليه أن يضعني في القطار وأن يرسلني إلى أي مدينة شاء ، فإني لا أبتغي إلا أن أعيش ، في حيث آمن على شرفي هذا الذي لم يذهب ، وعلى عفافي هذا الذي لم يضع وإن ظن سيدي بي الظنون .

قال في غيظ يشبه الرضا وفي سخرية تشبه الجحد : ما تزالين تذكرين السادة والخدم ! فقد علمت منذ حين أن ليس بيننا سيادة ولا خدمة ، وإنما بيننا ما هو شر من ذلك وأبعد أثراً .

قلت : وما ذاك ؟ قال : هو هذا . . . ثم اندفع إلى هاجماً كأنه الليث يريد أن يزدرد فريسته ازدرداً ، ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحببت ، ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تدعن إلا إذا رغبت في الإذعان . ومن أجل ذلك ارتدّ عنى كما هجم على ، واستؤنف الخصام بيننا كما كان من قبل عنيفاً ليناً ، وملتويماً مستقيماً ، وفيه ما فيه من هذه الألوان التي تفسد حياة العاشقين وتزينها في وقت واحد .

وتتصل الحياة على هذا النحو ، لا أجد لنفسي منها مخرجاً ولا يجد لنفسه منها مخرجاً ، وإنما دُفع كل منا إلى صاحبه دفعاً ، وردّ كل واحد منا عن صاحبه ردّاً ، لا يستطيع أن يخرجني من داره ، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار ، ولا أستطيع أن أفارقه جهرةً ولا خفيةً ، ولو قد فعلت لطلبني حيث أكون من الأرض .

فليس عندى شك الآن فى أن سيدى لا يشتهينى ولا يبتغى أن يظهر علىّ ويتصر على خصم عنيد ، وإنما هو الحب ، هو الحب الذى يطمع فى كل شيء ويرضى بأقل شيء ، بل يرضى بلا شيء ، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن بيتاً واحداً يحويه مع من يحب ويهوى . هو الحب ما فى ذلك شك ، لكن الشك المؤلم المضنى إنما يتصل بهذا القلب الذى يضطرب بين جنىّ أنا ، فما خطبه ؟ أمبغض هو كما كان مبغضاً من قبل ؟ أراغب هو فى الانتقام كما كان راغباً من قبل ؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التى صرعت فى ذلك الفضاء العريض ، ولعهد الأشباح الحمراء التى تقم معها على هذا الينبوع الأحمر ، التى قد طال مقامها معها حول هذا الينبوع ، وانقطعت زيارتها لهذه الدار فلم تلم بها منذ حين ؟

نعم ! الشك فى هذا القلب الذى يضطرب بين جنى بعد أن استيقن أن هذا الشاب يحبى ولا يستطيع عنى سلواً . ما خطب هذا القلب ؟ أحب هو أم غير مكترث ؟ فإن تكن الأولى فقيم المقاومة ، وقيم العذاب ، وقيم تعذيب الحبيب ؟ وإن تكن الثانية فقيم البقاء فى هذه الدار . وقيم الصبر على هذه الحياة التى لا تطاق ؟

كلا ! كلا ! فكرى يا آمنة ، ماذا أقول ؟ فكرى يا سعاد . . .
فقد محى اسم آمنة منذ دخلت هذه الدار .

فكرى يا سعاد . فقد آن لك أن تفكرى ، واعزى أمرك فقد آن لك أن تعزيمه ، أقمى كما تقم العاشقة أو ارتحلى كما ترتحل القالية ، فأما هذه الحياة المعلقة فليس لأحد فيها خير وليس لأحد فيها غناء ، ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل !

وقد فكرت سعاد ، وما كانت في حاجة إلى التفكير . وقد امتلأ قلبها وعقلها بهذه الحياة التي تحياها امتلاء ، وامتزجا بها امتزاجاً ، حتى أصبحت جزءاً منهما أو أصبحتا جزءين منها ، وحتى أصبح من أعسر الأشياء وأشقها أن تفكر الفتاة في هذه الحياة تفكيراً هادئاً مجرداً لا يتأثر بهذه العواطف العنيفة الحادة التي تتصور مرة كأنها النفور الذي لا نفور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذي لا إقبال بعده ، وهي في الحالين شيء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذي هو الحب .

نعم ! لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها في يقظة أو نوم ، إنما هي مستصحبة هذا الشاب إن حضر ، ومستصحبة هذا الشاب إن غاب . لا تهم بالخلوة إلى ضميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه ، ولا تمد عينها إلا رأت شخصه ، ولا تمد أذنها إلا سمعت صوته . قد أخذ الحياة عليها من جميع أقطارها ، وقد زاد عنها كل شيء وكل إنسان ، وزاد عنها حتى أختها تلك العزيزة وأشباهها تلك الحمراء . وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علة تشبه الجنون . لقد صرفت إليه عن كل شيء ، وصرف إليها عن كل شيء .

ولم يبق بين هذين الخصمين العنيدين صراع أو تفكير في الصراع ، وإنما هو الإذعان الذي لا ثورة بعده والاستسلام الذي لا رجوع فيه . ولكن الكبرياء ما زالت مسيطرة على سعاد ، تصارع الحب فيها

فتصرعه ، وتغالب العشق فيها فتغلبه ، وما أكثر ما اندفعت الفتاة إلى الاستسلام ! حتى إذا تكادت تنتهي منه إلى غايته ، وحتى إذا بلغت حافة الهوة وكادت تردى فيها تمثلت لها الكبرياء قوية عنيفة ، ونصبت أمام عينها مرآة تنظر فيها فترى صورة آمنة الأبية العزيزة ، وترى صورة سعاد الضعيفة المهالكة ، فترتد وراءها خطوة أو خطوات ، وتوجل الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول !

وقد تغيرت سيرة سيدي أيضاً ؛ فهو محب يلقي من الحب عناء وبلاء ، ويجد من آلامه مثل ما أجد . ولكن كبرياءه قد ردت إليه هو أيضاً فأصبح يتمنى في غير إلحاح ، ويأمل في غير إلحاف ، كأنما أحس في حبه شيئاً من حياة فأثر القصد والاعتدال ، وكأنما أحس الإخفاق المتصل فأثر الحرمان في شيء من العزة على ذلك الإلحاح الذي لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخذلان .

ولكنه يقبل على ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضا ، وفيها كثير من الحزن ، وفيها شك يتردد بين الرضا والحزن . يقبل على ذات مساء لا ثائراً ولا مستسلماً ، ويقول لي في صوت لا حدة فيه : لقد آن لك أن تستريحى ، وأن لي أن أستريح ! فأنظر إليه نظرة التي لم تفهم عنه والتي تعودت أن تسمع كثيراً فتفهم أو لا تفهم دون أن تحفل بما يستقر في نفسها أو يعزب عنها مما تسمع ، ولكنه يعيد على حديثه فأسأله عما يريد ، فيقول : سنفترق لأنى نقلت إلى القاهرة .

وتقع من نفسى هذه الحملة موقع الصاعقة ، وإذا أنا ذاهلة لا أجيء ولا أتكلف حتى إخفاء الذهول ، وإذا أنا أجد شيئاً من الدوار يكاد يبلغ بي الإغماء لولا أن أتمالك ، وإذا دموع تهمر في صمت متصل ، وإذا الفتى يدنو منى فلا أرتد عنه ، وإذا هو يضع يديه على كتفى فلا أمتنع عليه ، وإنما أنا مغرقة في الصمت ودموعى

ماضية في الانهمار ، والفنى قائم بمكانه منى في هدوء لم أعهده ، ينظر إلى صامتاً دهشاً ، ثم ينأى عنى قليلا وهو يقول في صوت شاحب :
ماذا أرى ! إنك لتكرهين فراقى حقاً !

ثم يعود إلى صمته ، وأمضى أنا في صمى ، وتمضى دموعى في الانهمار . وما أدرى أطال بيننا هذا الموقف أم قصر ، ولكنى أسمعته يدعونى في صوت قد فارقه شحوبه وعاد ممثلاً مشرقاً كما عرفته ، وأرفع رأسى وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكبة فأرى وجهاً مشرقاً أشد الإشراق قد استقرت فيه أمارات الحزم والهدوء ، وإذا هو يقول لى : أما والأمر بيننا على ما أرى فلن نفرق . ستصحبينى إلى القاهرة ، ولن ينالك منى إلا ما تحبين . هلم فامضى فى شؤنك كما تعودت أن تفعلى ، هيبى من أمرك وأمرى للسفر ، فلن نقيم هنا إلا أياماً .

ثم ينصرف عنى كما أقبل على هادئاً رزين الخطا . وقد أنكرت من نفسى كل شىء ، وأهم أن ألوم نفسى على هذا الضعف الذى لم أستطع إخفائه ، ولكنى لا أجد من نفسى قوة على اللوم ، وإذا أنا راضيه عن هذه الحال الجديدة رضاً عميقاً قد مازج نفسى واختلط بدى ، ولكنه فى الوقت نفسه رضاً حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر ، وإنما هى حياة الخادم التى اطمأنت إلى ما يلم بها من الأحداث ، ومضت فى حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً ، وإنما هى مستسلمة تذهب وتجيء ، وتأتى من الأمر ما تأتى ، وتدع من الأمر ما تدع ؛ لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا ، ولأنها تجد فى هذا أقصى ما كانت تنتظر من السعادة .

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلى منذ ذلك الوقت نظرات برئت من الطمع والأمل ، وقنعت منى بما يقنع به السيد النقى من الخادم

النقية ، فلا أثم بيننا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه ، وإنما هي حياة نقية بريئة قد استؤنفت بيننا كأننا لم نلتق قبل ذلك الوقت ، وكان أحدنا لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التي أنبأني فيها أنه قد آن لكينا أن يسريح لأنه نقل إلى القاهرة .

وإني لأدعو أختي حين أدخلو إلى نفسي في النهار وحين أدخلو إلى نفسي في الليل فلا تستجيب لي صورتها التي كنت أعرفها في المدينة باسمه مشرقة ، ولا تستجيب لي صورتها التي عرفتها في بيت العمدة واجمة هائمة ، ولا تستجيب لي صورتها التي كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر ، تطيف بها ظلالها الحمراء .

لا تستجيب لي صورة من هذه الصور ، وإنما هي ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتندفع لها بعض الزفرات وقد تنهمر لها بعض العبرات ، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق ، وإذا أنا أعود إلى حياتي المضيفة الهادئة ، الحزينة في غير تكلف لحزن أوسرور . وأنتقل مع سيدى إلى القاهرة وأقيم معه في دار أبويه موكلة بخدمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار ، ولا أجد من أبويه إلا برّاً وعطفاً ، وإلا رفقاً وحناناً . فأما هو فقد جعل ينظر إلى كل ما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم ، قد اصطفاني لنفسه ، واختصني بوده ، وجعل يشركنى في كثير من أمره .

يا لله ! إني لأحس شهاً بين هذه الحياة التي أحيها مع هذا الشاب في دار أبويه الفخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التي كنت أحيها مع خديجة في بيت أبويها بمدينة من مدن الأقاليم . لقد عاد الأمر بينى وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بينى وبين خديجة من النقاء والظهر . ألم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء !

ولكنها صداقة غريبة هذه التي تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف

الغنى ، وهذه الخادم البائسة التى طالما طمعت فيها نفسه الطامحة ، وأغرته بها عواطفه الجاحمة ، والتى طالما اتخذها غرضاً لأهوائه الآثمة ، وابتغى عندها من اللهو والحجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثالها من البائسات الغافلات ، فلما لم يظفر منها بشيء حاصرهما كما تحاصر القلعة ، وحاربها كما يحارب العدو ، فلم يستطع أن يقهرها ، ولم نستطيع أن نقهره . وأقاما معاً فى شيء من الموادعة لا يستطيع عنها سلواً ، ولا تستطيع عنه انصرافاً ، لا يشير إليها من آماله ومطامعه بقليل أو كثير ، ولا تلقاها هى من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد فى حاجة إلى المقاومة أو الامتناع .

أأكذب نفسى أم أصدقها ؟ أأصارعها بالحق أم أموه عليها الأمر ؟ لقد رضيت حياتنا الحديدية واطمأن إليها قلبي كل الاطمئنان ، واغتبطت بها نفسى أشد الاغتباط ، وارتاح إليها ضميرى هذا المتعب المعذب الذى كان فى حاجة إلى أن يرتاح . ولكن أظل قلبي مطمئناً ونفسى مغتبطة وضميرى مرتاحاً بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور فى مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤتلفين مختلفين ؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالت وبأن هذه الموادعة قد اتصلت أكثر مما كان ينبغي أن تتصل ؟ ألم أجد فى أعماق ضميرى شوقاً إلى تلك الحرب وجنوحاً إلى ذلك الخصام ؟ ألم أحس فى دخيلة نفسى أن حياة هذا الشاب قد يكون لونها من الصدِّ وأن احتشامه قد يكون فناً من الإعراض ؟ بلى ! وجدت هذا كله وأنكرته من نفسى أشد الإنكار ولتها فيه أعنف اللوم ، وما أشك فى أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ، ولأم نفسه فى مثل ما كنت ألوم نفسى فيه .

وقد زاد هذا الحمل ثقلاً على نفسه وعلى نفسى أنه سار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التى ألفها فى الأيام الأخيرة من حياته فى الأقاليم .

فكان يغدو إلى عمله مصباحاً ويروح إلى دار أبويه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد . ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يُلْمون بدورهم إلا ليخرجوا منها ، إنما دورهم فنادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل . وفي القاهرة مما يفتن الشباب ويغريهم شيء كثير طالما سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها . فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يناله إغراء ؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا ، وابتهجا بمحضر ابنهما كل الابتهاج ، ولكنهما وجدا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه في لزوم الدار والعكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصدقاء والتعرف إلى الناس . وكثيراً ما رغبته أمه في الخروج فلم يستجب لهذا الترغيب ، وكثيراً ما أغراه أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذلك من بيوت الأصدقاء فلم يستمع لهذا الإغراء ، إنما هو الغدو على العمل والرواح إلى الدار ، والأوقات ينفقها مع أبويه ، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كتبه يعكف عليها حتى يتقدم الليل .

وكان في أثناء ذلك ربما دعاني إلى غرفته وأخذ يتحدث إلى ويسمع مني ، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا في كثير من الأحيان ، كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى .

كان يتحدث أو يسمع جالساً إلى مكتبه ، وكنت أتحدث أو أسمع واقفه غير بعيدة من مكتبه . وما أكثر ما دعاني إلى الجلوس وما أشد ما كنت أتمنى الجلوس ! ولكنني كنت أعتذر باسمه ؛ فما ينبغي لمثلئ أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثلي من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له ، وهذا كثير .

لم تكن غريبة هذه الصداقة بيني وبين هذا الشاب على ما كان

بيننا من الائتلاف والاختلاف ؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود الذي يكون بين الأصدقاء ؟ ! أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حباً ثائراً أكنمه على ما كان يكلفني كتماناً من الجهد ويحملني من المشقة والعناء . وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهوراً حتى خدعني أو كاد يخدعني عن نفسه ، ولكنه ألقي النقاب ذات مساء فغير من أمرنا كل شيء ، ألقاه في غير جهد وفي غير تكلف ، لم يضطرب له صوته ، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذي تضطرب فيه نار الحب . إنما تحدث إلى في هذا الأمر كما كان يتحدث إلى في أمر المدينة وفي أمر القاهرة بصوت لا يرتفع فيه ولا انخفاض ولا اعوجاج فيه ولا التواء !

قال : ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينتهي إلى غايته ويبلغ مداه ؟ قلت : وما ذلك ؟ قال : هذا الحب الذي اختصمنا فيه وقتاً طويلاً وسكتنا عنه وقتاً طويلاً ، ولكنه لم يسكت عنا ، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهلني ساعة . أما ينبغي أن تنتهي هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ وقد سمعت منه ولكني لم أرد عليه جواباً .

فلما طال عليه صمتي استأنف حديثه في صوت لا يزال سواء ، فقال : إنك تفهمين عني اليوم ما أريد ، كما فهمت عني من قبل ما كنت أريد . قلت مبتسمة : بل إنني لم أفهم عنك شيئاً . قال ضاحكاً : بل تفهمين أني كنت أريدك على الإنم ، وإني الآن إنما أريدك على الزواج .

واحتجت إلى أن أعتد على كرسي كان مني غير بعيد ، فإن فكرة الزواج لم تخطر لي قط ، وما كان ينبغي أن تخطر لي ؛ فقد أقدمت على كثير من خطير الأمر وتصورت في نفسي كثيراً من جليل

العمل ، ولكنى احتفظت دائماً بعقلي ولم يخرجني الحب كما لم يخرجني
البغض ، ولم يخرجني الأمل كما لم يخرجني اليأس ، عن طورى فى لحظة من
اللحظات . لذلك أجبته صادقة بأن هذا أمر لا ينبغي العبث فيه .

قالى وهو يضحك : فإنك تظنين أنى أعبث ، وتقدرين ما بينك
وبينى من الفرق الاجتماعى متى تزوج السيد الغنى المترف من خادمه
الشقية الفقيرة البائسة ! أليس هذا هو ما تقدرين ؟ فأريحى نفسك
إذن من كل هذه الحواطر ؛ فقد رأيت منذ موقفنا ذاك فى المدينة أنى
لست سيداً كغيرى من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست
خادماً كغيرك من الخدم . لقد دهشت حين رأيتك تنتظرينى إلى آخر
الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتي سبقنك إلى خدمتى ،
ولكنى لم أكن أقدر أنك ستثيرين فى نفسى ألواناً أخرى من الدهش .

ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت ، وليت مائلة ذاهلة
لا أقول شيئاً ، وأكاد لا أعى شيئاً ، ولكنه رفع رأسه ، وقال فى صوت
هادئ حزين : أتقبلين ؟ قلت فى صوت ليس أقل من صوته هدهوءاً
ولا حزناً : فإن سيدى يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل . قال : تفكرين
فى أبوى ! فإنى قد فكرت فهما قبلك وقد حزمت أمرى ، وما أشك
فى أنهما لن يمتنعا على ، ولو قد فعلا لعرفت كيف أمتنع عليهما ،
ولكنهما لن يفعلا ، فهل تقبلين ؟ قلت : ليس إلى ذلك من سبيل .
قال : فمن حقى عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراقاً
بيننا مستحيل ، وإنى لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبي رضا إلا فى
الزواج . قلت : فقد قضى على قلبي أأ يرضيا . قال : ومن ذا الذى
قضى عليهما هذا العذاب المتصل ؟ وهمت أن أجبب ولكن صوتى
يحتبس . ودمعى ينطلق ، وإنى لأراني أهم بالانصراف ، وإنى لأراه
قد نهض من مجلسه متناقلاً وسعى إلى متباطئاً حتى ردفنى فى هدهوء ودعة ،

ثم عاد إلى مجلسه وقال : أترين إلى كيف أملك نفسي ! ألا تفكرين في تلك الثورة الجارحة التي شقيت بها وقتاً طويلاً .

أنبئني من ذا الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ؟ قلت : أنت الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ، وأنا التي قضت علينا هذا العذاب المقيم . كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شر ونكر ، وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه المواعدة الهادئة التي لا ينبغي أن نطمع في خير منها فليس في الحياة خير منها بالقياس إليك ولا بالقياس إلى . قال : فإن حديثك لم يزد إلا غموضاً . قلت : فخبر لنا أن تقبله على ما فيه من غموض . قال ، وقد ظهر أنه يبذل جهداً ليحتفظ بهدوئه : فإنني أقسم لك أنني لم أعد أستطيع صبراً على هذه الحياة . قلت : وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة ، ولكن ما الذي نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب . قال : أي قضاء ؟ ألم يأن لك أن تفصحى ، ألم يأن لي أن أفهم ، ألم يأن لهذه الظلمة أن تنجاب ؟ قلت : أحريص أنت على ذلك ؟ إنني لأحشى إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر في وجه صاحبه . قال ، وقد غلبه العنف ، فارتفع صوته قليلاً واضطربت يده اضطراباً خفيفاً : بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة . قلت : فاذن لي إذا بالجلوس ، ولم أنتظر إذنه ، وإنما جلست على هذا الكرسي الذي كنت أعتد عليه ، وألقيت عليه قصتي في صوت هادئ مطرد لا يبله الدمع ولا يظهر فيه الحزن ، ولا ينم عن قليل أو كثير من الاضطراب إنما ألقيت عليه قصتي كأنني أتحدث عن شخص غريب إلى شخص غريب .

وما أدري أطلال الوقت الذي ألقيت فيه قصتي أم قصر ، ولكنني أعلم أنني سمعتني أقول : أفهمت الآن ؟ أترى إلى هذا الضوء الذي

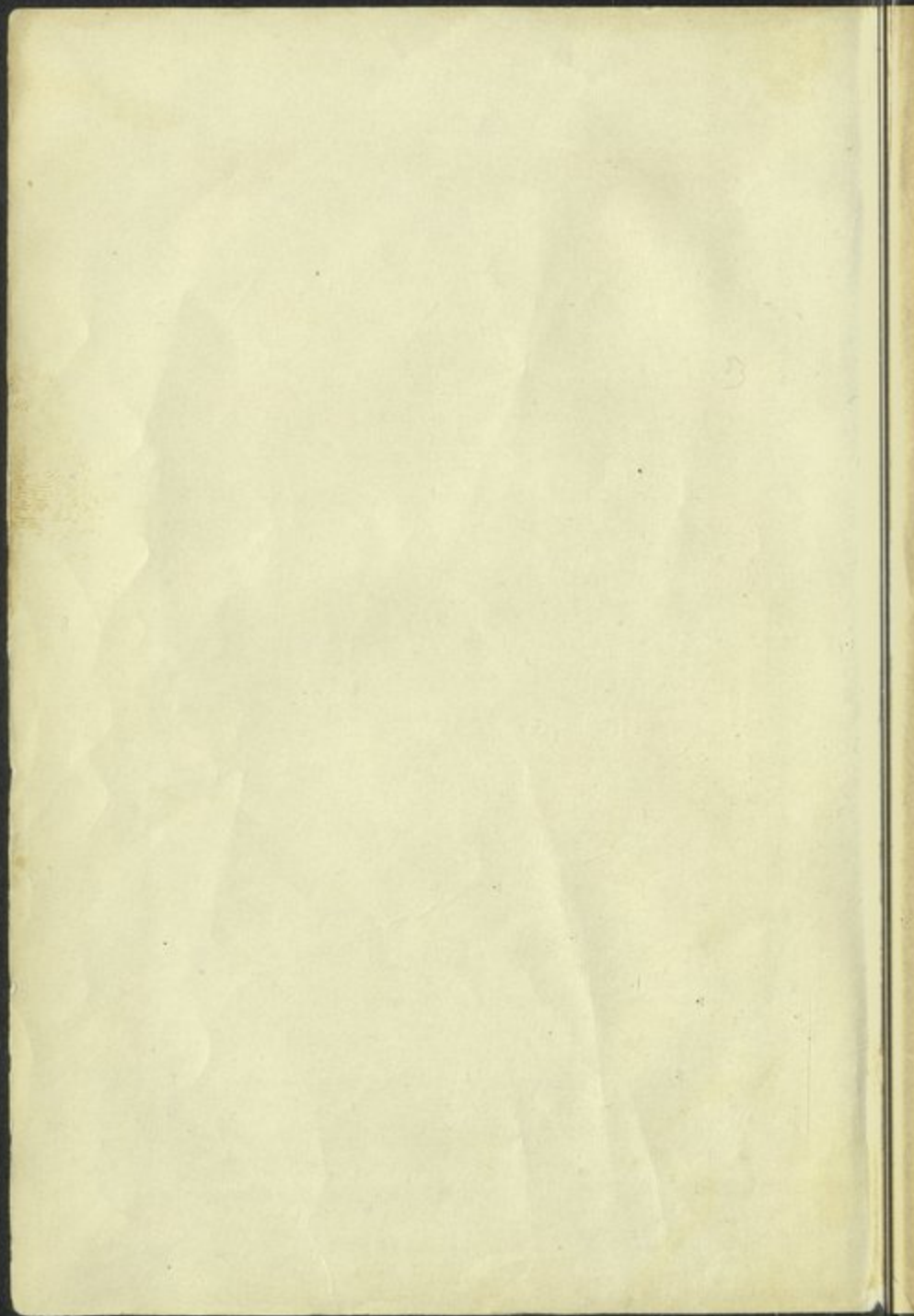
يغمرنا ؟ أستطيع أن تنظر إلى ؟! وقد انتظرت جوابه لحظه غير قصيرة ،
ولكني سمعته كأنما كان يتحدث إلى من مكان بعيد جداً ، سمعته
يقول : نعم ! أستطيع أن أنظر إليك ، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك ،
وأنت أتطبيقين أن تنظري إلى ؟ أما زلت تضميرين الانتقام ؟ ولم أجب
إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت نفسها وذاب قلبها ، فهو
يسيل من عينها دموعاً . ثم أسمع بعد وقت لا أدري أكان طويلاً أم
قصيراً يقول لي : لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا
الضوء ؛ فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه . ليس
من العجب أن يكون هذا الضوء الذي أخذ يغمرنا شراً من الظلمة
التي خرجنا منها ؟ إن أحدنا لن يستطيع أن يهتدى في هذا الضوء إلا
إذا قاده صاحبه . إن العبء لأثقل من أن تحمله وحدك ، وإن العبء
لأثقل من أن أحمله وحدي ، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله
أمرأ كان مفعولاً .

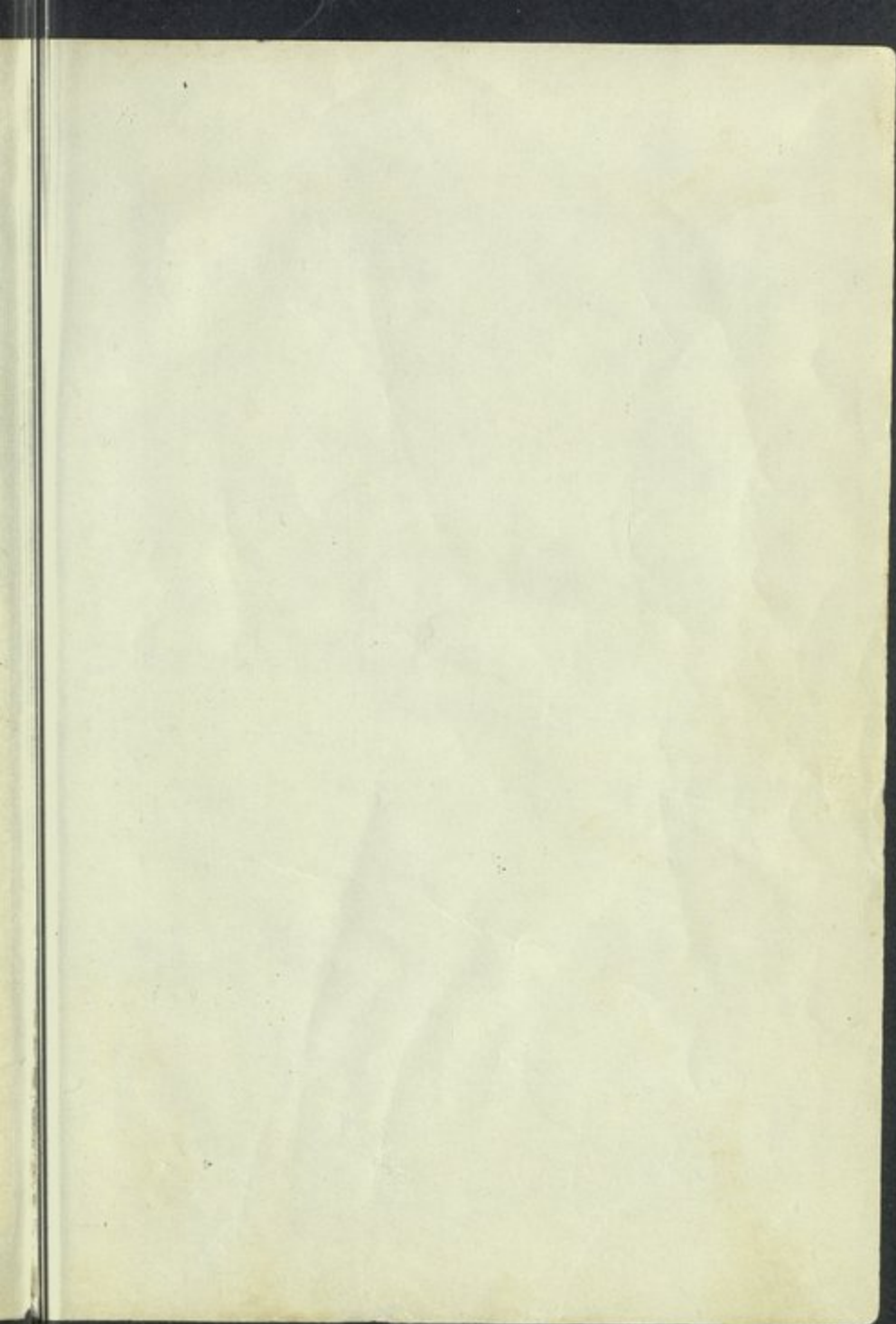
ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وأطبق على
الغرفة صمت هائل رهيب ! غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم في نوم
برىء من الأحلام .

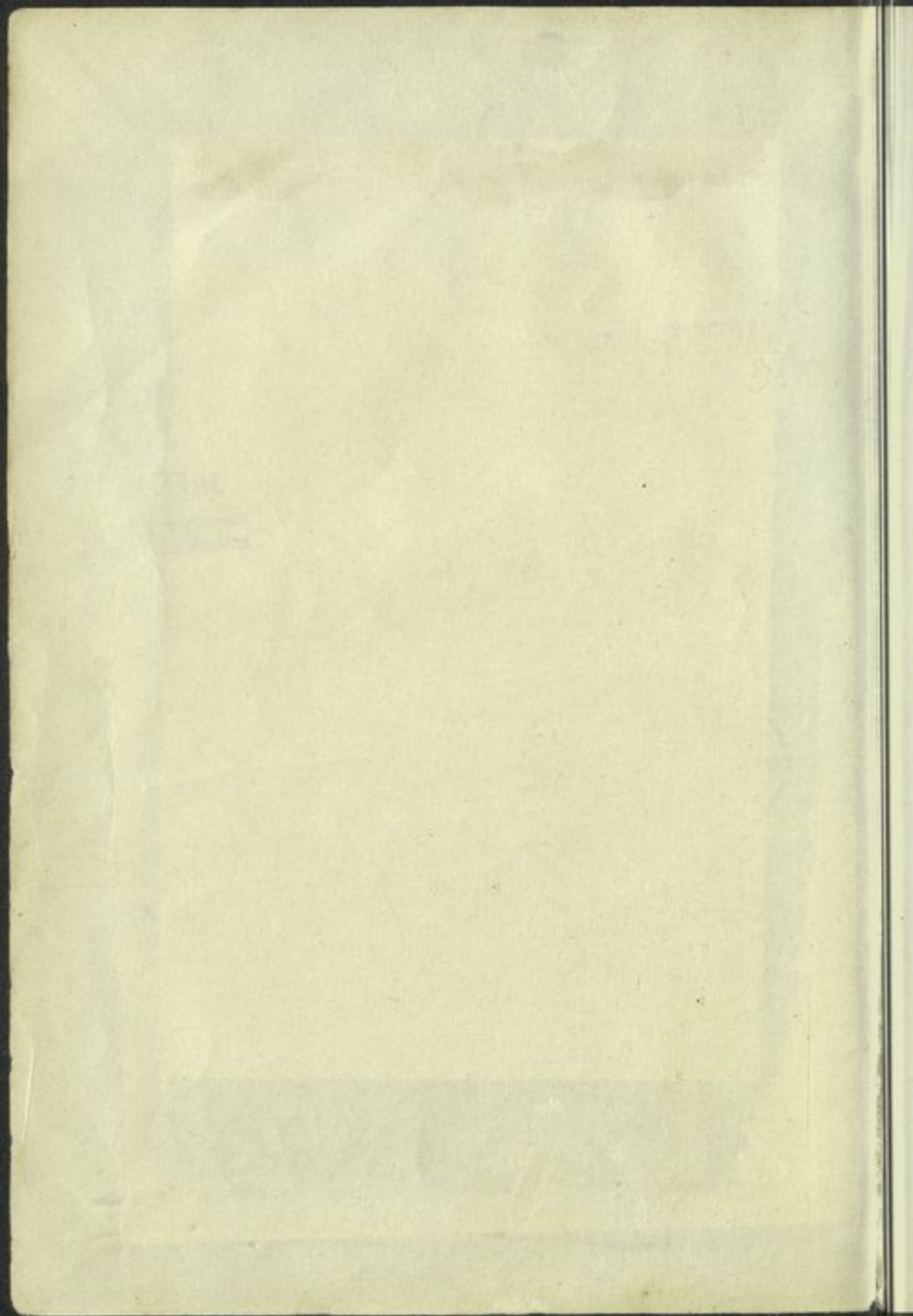
ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغني فينتزعني انتزاعاً من هذا
الصمت العميق ، فأثب وجلة مذعورة ، ويثب هو وجلا مذعوراً ،
ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء ، فأما أنا فتنحدر
على خدي دمعتان حارّتان . وأما هو فيقول وقد اعتمد بيديه على المائدة ،
دعاء الكروان ! أثرينه كان يرجع صوته هذا الترجيع حين صرعت
هندى في ذلك الفضاء العريض ! !

القاهرة ، سبتمبر ١٩٣٤

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر







DATE DUE



ET LIB
MAR 1976

8

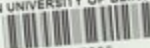
~~DEC 19~~

~~JAN 1975~~

892.73:H0664

حسين، طه
دعاء الكروان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037803

892.78
H23924dA
C.1